
ابراهيم أصلان
ك الحزين
رواية
دار الآداب


مالك الحزين

إبراهيم أصلان

مالك الحزين

لأنَّهم زعموا أنَّك تقعد بالقرب
من مياه الجداول والغدران
فإذا جفَّت أو غاضت
استولى عليك الأسى
وبقيت صامتاً هكذا
وحزيناً

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى: ١٩٨٣ ـ مطبوعات القاهرة
الطبعة الأخيرة ١٩٩٢ ـ دار الآداب

يا ناثانيل
أوصيك بالدقة
لا بالوضوح
(بول فاليري)

(١)

كانت بالأمس قد أمطرت مطراً كثيراً ابتلّت منه حتّى عتبات البيوت، في الحواري الضيّقة. أمّا اليوم فإنّها كفّت. لم تمطر ولا مرّة واحدة. ومع أنّ الشمس لم تطلع، وظلّت طول النهار وهي غائبة، فإنّ الجو كان أكثر دفئاً. ومنذ قليل، جاء المساء مبكراً.

(٢)

في الحجرة الخارجيّة التي تطلُّ على الوسعاية الصغيرة، أزاح البطّانية عن نصفه الأسفل، وجلس على الكنبة وهو يداري ساقيه بطرف الجلباب، جلباب أبيه. كان شيش النافذة مغلقاً وراء الستارة التي تباعدت فيها الزهور الدقيقة الباهتة، وضوء آخر النهار يأتي عبر اللّوح الزجاجي المحبب أعلى الباب الخشبي المغلق.

مدّ يده إلى كوب الشاي الكبير الدافىء، وقام يوسف النجّار واقفاً.

(٣)

رأته أمُّه وهو يعود بالجلباب والسنارة فأدارت وجهها. وعندما دخل لينام طلب منها أن لا توقظه حتّى يقوم من النوم وحده لأنّه متعب. قامت هي وأخذت كيس السمك وأفرغته في صينية القلل وأحضرت صاجة الشّواء. أعدّت حفنة من الردّة وصحناً به ماء خلطت فيه الملح والشطّة والثوم والكمون ودخلت وراءه ونظرت إليه

وهـو راقد وسـألته عن الكـبريت. قام واقفـاً حتّى لا تضع يـدهـا في جيوب البنطلون وأعطاها العلبـة. قالت وهي تخـرج إنَّ العم مجاهـد مات. وجلس فاروق على الكنبة وقال: «ازاي»؟

وقفت في مدخل الحجـرة وقالت إنَّ النـاس يقولـون بأنَّ الحكـومة لقيته ميتاً داخل الدكان: «افتكروه نايم يا عيني وأتـاريه كـان ميت». ثمَّ أضافت وهي تخرج: «والعسـاكر مسكت عمَّـك عمران لأنـه كان قاعد معاه بعد ما مات».

قام فاروق ولبس الشبشب وخـرج من باب البيت وعـبر الوسعـاية ووقف تحت البلكونة الخشبيَّة المائلة ونظر إلى دكان العم مجاهد فوجده مغلقـاً وليس هناك أحـد. فكَّر قليـلاً، ثمَّ استدار عـائـداً إلى جـابـر البقَّال، وراح يتكلَّم معه.

(٤)

كانت جدران الحجرة مزدحمة بصفوف الكتب المتراصَّة عـلى أرفف الخشب المحمـولة من أطـرافها بـالحبال المجـدولة، كـما كـانت هنـاك لوحتان كبيرتان على جانبي النافذة، إحداهما نسخـة من الموناليزا التّي فـردت على الجـدار وثبتّت من أعـلاهـا بمشبـك معـدني صغـير، أمَّـا الأخـرى فقد علّقت في الجـانب الأيمن، فوق نهايـة الكنبة التّي يجلس عليها. كانت مـرسومـة بالحـبر الشيني على ورق أبيض مـال لونـه إلى الصفـار وموضـوعة داخـل إطار عـريض دون زجاج، انـطفـأ طـلاؤه الذهبي وصار في لـون النحاس القـديم المطروق، تمثّـل رجلاً يـركب بغلة عجوزاً، بدرع على الظهر، ورمح طويل كالعصا. وكـان التابـع

قريباً من الأرض على ظهر حماره اللاهي ذي الخرجين، يرفع رأسه المدوَّر ويتطَّلع إلى فارسه العالي وهو صامت. وكانت الأرضيَّة مجموعة من الخطوط التي استكملها توقيع بيكاسو والتاريخ، وعلى هذه الأرضية تباعد، بين قوائم البغلة والحمار، عدد من طواحين الهواء الصغيرة مثل لعب الأطفال. وبدت الشمس معلقة كأنَّها الحلقة المعوجَّة المفتوحة ترسل أشعتها في خطوط قصيرة وطويلة. كما كانت بالحجرة بندقية صيد قديمة، ومجموعة مختلفة من زجاجات الخمر الفارغة والأكواب وأقلام الرصاص، وخوذة من الحديد امتلأت بعلب الأدوية وأمشاط الكبريت، ومكتب، ومرآة ثقيلة بإطار منقوش، ودولاب قصير عليه (بيك آب) وتحته زوجان من الأحذية.

وخلف الباب، كانت ثيابه معلَّقة على المشجب النحاسي الصغير.

* * *

تناول ساعته من بين الكتب والمجلاّت المكوّمة على سطح المكتب وخرج إلى الصالة وهو يحمل كوب الشاي الكبير الفارغ. كان المقعد الكبير الموجود بالصالة خالياً، وأحد الصبية ينام على الكنبة القريبة، وامرأة شابة تقف أمام الحوض فيما بين المطبخ والمرحاض. أما الأمّ، فقد كانت تجلس على الكنبة الأخرى، إلى جوار النافذة العريضة بزجاجها المغلق وشيشها المفتوح. قال يوسف النجار إنَّه سوف يذهب إلى المقهى. وعندما كان ينزل الدرجات القليلة المفضية إلى الوسعاية، سمع صوت أمّه وهو يقول: «مع السلامة».

«مساء الخير يا أستاذ».

«أهلاً فاروق».

أعطاه جابر علبة السجاير، وعندما أخذها واستدار أخبره فاروق أنّ العم مجاهد مات. توقّف يوسف وتطلع إليه فقال: «آه والله. إحنا لسه دافنينه وراجعين من القرافة، دفناه في سيدي عمر. أنا يادوب دخلت غيّرت هدومي وخرجت. تعب بقى. طول النهار في الشيل والحط والدفن والطلوع والنزول. قلت أجي آخدلي قزازتين بيرة كدة على الماشي. علشان أعرف أنام بس. ما تيجي تاخد لك كباية».

شكره يوسف النجّار وقدّم له سيجارة. أخذها فاروق وأشعلها، وراح يتابعه وهو يغادر الوسعاية، ويبتسم.

* * *

في الصباح، أخبرته أمّه أنّ أمناء الشرطة قد وجدوا العم مجاهد ميتاً عند الفجر، داخل دكانه الذي كان يعرفه، والذي كان مسودّاً وخالياً إلاّ من حشيّة طويلة بالية، ووابور يظلّ موقداً طول الليل تحت قدر النحاس الكبيرة، والباب نصف مغلق، حيث يقوم في الصباح ليبيع الفول للأولاد.

وعندما كان يرتدي ملابسه فكّر في العم عمران. لقد كان صديقاً للعم مجاهد. وكثيراً ما رآهما بنفسه وهما يتبادلان الكلام داخل الدكان. وكان هو وبعض الناس الآخرين يعرفون أنّ العم مجاهد هو الوحيد الذي كان يعنِّف العم عمران لارتدائه البيجامة. وكان أكبر سنّاً من أيّ رجل آخر صادفه طول حياته، لأنّه كان عجوزاً جدّاً ويسير منحنياً. العم عمران أيضاً رجل عجوز وشعره أبيض، ولكنّه

بدين قليلاً وصاحب مرض. وفي الصيف، كانت بشرته تلوح محمرّة وناعمة، ويبدو وجهه مثل وجوه الأطفال. أما الآن فإنّ شكله لم يعد كذلك، لأنّنا في الشتاء.

كان يفكّر وهو يحاول أن يكون حذراً، لأنَّ سالم فرج حنفي أخبره بالأمس وهو يضحك أنَّ شقيقته رأته وهو يمشي ويتحدَّث مع نفسه دون أن يكون معه أحد من الناس. وحينئذ رأى الأمير عوض الله وهو يجلس عند مدخل المقهى. صافحه ورأى العم عمران وأراد أنّ يدخل لكي يجلس معه ويأخذ بخاطره ويرى وقع موت العم مجاهد على نفسه، ولكن الأمير أحضر مقعداً، وطلب له كوباً من الشاي.

* * *

كاد المقهى في ذلك الوقت أن يكون خالياً.

إلى يسار المدخل المفتوح، كان قاسم أفندي يقرأ شيئاً في جريدة الأهرام، وعبد الله القهوجي يستمع إليه وقد مال بقامته النحيلة وهو يضع يديه في جيوب الفوطة، ويضيق من عينيه المريضتين. على بعد مقعدين منها، كان المعلم رمضان يجلس وهو نعسان إلى جوار الشيخ حسني الذي ثبَّت كعبه وراح يدق بنشط قدمه على الأرض ليضبط إيقاع الجندول التي تذاع من الراديو، بجلبابه القديم، وسترته المفتوحة، وشعره الخشن الذي بقّعه البياض. وعلى بعد مقعدين آخرين، كان دولاب قصير عليه لوحة من البلّور وطبقان أحدهما به كمية من الماركات النحاسية. ووراء هذا الدولاب كان مقعد المعلّم موضوعاً على صندوق كازوزة فارغ ومقلوب، تحت الرفّ الذي يحمل

الـراديو الخشبي الكبـير. وفي صـدر المقهى، ووراء الجـدار الـرخـامي الـذي حفرت في قلبـه حلقة عـلى هيئة هـلالين متقـابلين حـول اسم عوض الله، كانت (البواري) بأعناقها النحاسية المجلوّة مصفـوفة مـع (الشيش) الـزجـاجيـة عـلى الـرفّ الجـانبي، بخـراطيمهـا المكســوة بالقطيفة، ومباسمها العاجيـة الملونة. وكـان عبد النبي الأعـرج يقف داخل النصبة أمام المنقد الكبـير، يشعل الفحم ويهـوي عليه بمـروحة من الـريش. أمّا في النـاحية اليمنى، أمـام قاسم أفنـدي، فقـد كـان سليمان الصغير يتفرج بجانب عينه على الأربعة الذين يلعبون الدومينو بالنقود. وكان جمال ماسح الأحـذية قـد ترك صنـدوقة المقعـد واقترب منهم أكـثر وراح يتـابعهم في صمت. وفي الـركن، كـانت صنــاديق الكازوزة الفارغة مرصوصة ومقرَّبة، تعلوها مرآة طويلة نالها ما يشبـه الصـدأ، وتحت هذه المـرآة، إلى جوار الثـلاَّجـة الجـافَّـة، كـان العم عمـران وحيـداً في بيجـامـة من الكستـور المقلَّم، وطـاقيّــة من نفس القماش.

كان يتطلَّع أمامه، وقد أغلق فمه الخالي من الأسنان.

* * *

رفع الشيخ حسني رأسه وصفَّق مناديـاً، ولكن عبد الله القهـوجي تجاهله. وقف يستمع إلى قاسم أفندي ولم يرد عليه.

وظلَّ الشيخ رافعاً رأسه. وحين كان عبـد الله يعود من هنـاك ويمرّ من أمامه، مدّ يده وأمسك به من طرف المريلة وجذبه إليـه. وعندمـا استـوثق همس له أن ينتبـه لأنّ الشيخ جنيـد على وشـك المجيء بـين لحظة وأخرى، وقال له: «خلي بالك».

عبد الله غلبه الابتسام لأنَّ الشيخ حسني رآه وهو يمرّ من أمامه لكي يحضر الطلبات وأمسك به مع أنَّه أعمى لا يرى. ثمَّ تمالك نفسه وقال إنَّه لم ينس ولا يحزنون ولكنَّه لا يريد أن يشارك في هذا الموضوع «الكلام ده كان زمان يا مولانا». ثمَّ إنَّ الشيخ جنيد يبدو رجلاً محترماً وغير كلّ الشيوخ السابقين. وكشَّر عبد الله وقال إنَّه مندهش لأنَّ الشيخ حسني لا يخفى عليه أنَّ المقهى في حكم الذي طار، مندهش لأنَّه يعرف طبعاً أنَّه أول واحد مسئول عن هذا الطيران. وأخبره أنَّه في القريب العاجل بإذن الله لن يستطيع أن ينتظر الشيخ جنيد أو أي واحد غيره: «ياريت كده وبس. ده مكتوب في الأهرام عند قاسم أفندي أنَّ صاحب القهوة والسينما والمكتبة وحسين السمَّاك والحاج حنفي اللَّبان والجامع وصاحب ميدان الكيت كات كلّه، طلع واحد خواجه. عايش ورافع قضية قدّام النيابة».

وحاول عبد الله أن يخلِّص المريلة ولكنَّ الشيخ لم يفلته. استمع إليه حتَّى آخر الكلام، وطمأنه من ناحية هذه المسائل، وطلب منه أن يجعل عينيه في وسط رأسه، ويسكّ تماماً على هذا الموضوع، ويسكّ أيضاً على كوب الشاي الذي طلبه، لأنَّه سوف يشارك المعلم رمضان، ويأكل معه البرتقال.

(صائد العميان)

كان عبد الله القهوجي قد وافق، من باب توسيع الرزق والانبساط، أن يعمل (ناضورجياً) لحساب الشيخ حسني.

لم يكن عليه، عندما يرى أحد العميان، إلا أنّ يخبر الشيخ بما

رأى. ومع الوقت، صار عبد الله يعرف عمله جيداً ويجيب وحده على بعض الأسئلة الضرورية مثل سنّ الزبون وثيابه، أو ما قد يكون هناك من علامات بارزة. كان يفعل ذلك ثمَّ يبتعد إلى حين تاركاً كلّ شيء للشيخ حسني الذي يتّجه إلى الأعمى ويضع نفسه في طريقه، يسأله عن مقصده أو يأخذ بيده ويعاونه على نزول الرصيف، ويتركه أثناء ذلك يعتقد أنَّه بصحبة رجل يرى. وفي كلّ المرّات تقريباً، لم تكن تمرّ إلاَّ بضع لحظات وتكون العلاقة قد بدأت بينهما، ويكون الشيخ قد سحبه إلى المقهى. ومهما كانت الظروف المادية لهذا الصديق فإنَّ القرش كان يجري في يد الشيخ حسني ويعاود التعامل مع الهرم بائع الحشيش، لأنَّ أمّ الأولاد كانت، في هذه الأيام، تأخذ المرتب أول كلّ شهر من يد عارف أفندي سكرتير مدرسة إمبابة الإسماعيلية الابتدائية حيث يعمل الشيخ مدرِّساً للموسيقى، ولا تترك له إلاَّ ما يفي بحق الدخان. وما أكثر العميان الذين ساعدهم الشيخ وألحقهم بما يناسبهم من أعمال. وما أكثر الذين جمع باسمهم التبرّعات من هنا أو من هناك. ما أكثر هؤلاء جميعاً بالنسبة لهذه القلّة التي كشفت العملية من البداية ولاذت بالفرار. أو هؤلاء الأفراد الذين أخذهم الشكّ أو فهموا ومع ذلك استمرُّوا لكي يعرفوا ما يقصده الشيخ من ذلك ثمَّ هربوا عند أوَّل بادرة من بوادر الخطر الحقيقي. أمَّا الذين لم ينتبهوا إلاَّ بعد أن بدأ الشيخ يزوغ منهم بعد أن ضاعت فلوسهم كلّها فقد كان نصفهم لا يلوم إلاَّ نفسه لأنَّه لم يكن يصح من الأول أن يسلم الأعمى منهم حياته كلّها لرجل مبصر يصادفه هكذا في عرض الطريق. أمّا النصف الباقي، فقد كان الواحد يسأل عن طريق البيت ويعرفه ويظلّ يتردَّد بينه وبين المقهى

في إصرار وطـولة بـال حتى يعرف فجـأة أنَّ الشيخ حسني كـان طول الـوقت رجلاً أعمى هـو الآخر. حينئـذ كـان ينصرف ولا يقـرب من إمبابة بعد ذلك أبداً.

وفي كلّ الحالات لم يكن الشيخ ينسى عبد الله القهـوجي: المزاج. الدخان. العشاء أحياناً من عند حسـين السمّاك. الـبرتقال. البقشيش الكبير عند الحساب، وما قد يكون هناك من فوائـد أخرى. لأنَّ عبـد الله والحق يقال، لم يكن يحفظ السر فقط، بل كان عليه بعد ذلك أن يأخذ بيـاناً بمـواعيد الشيـخ مع هـذا الصديق أو ذاك. وعنـدما يحـين الـوقت يراقب الـطريق جيداً. ومـا إن يرى الضريـر قادمـاً حتى ينبّـه الشيخ بوسيلة مـا، لكي ينهض من مكانـه ويتقدَّم إلى مـدخل المقهى كأنَّه رجل مبصر رأى صديقه الضرير قـادماً وقـام بنفسه لكي يستقبله عنـد الباب، يـرحب به ويسحبـه بين النـاس ويجلسه إلى جـواره على المقعد. ولا بدّ أنَّ يتم ذلك تحت الرعاية الجانبيَّة من عبـد الله حتى لا يخطئَ الشيخ ويستقبل أيّ رجل يصادفه: «وتبقى مشكلة».

ولقد مرّت عليهما أيام طيّبة. كما مـرّت عليهما أيـام كساد طـويلة. سنوات بدت فيهـا الدّنيـا وكأنَّها خلت من العميـان إلاَّ الشيخ حسني نفسـه. وكاد عبـد الله ينسي ذلك كلّه، حتّى جـاء يوم خـرج فيـه إلى مدخل المقهى، ولمـح شيخاً ضريـراً يأتي بقـدميه عـبر الميدان فـتراجع دون وعي منـه وأخبر الشيـخ حسني بما رأى. ومـا إن توقّف الضريـر تحت شجـرة الكـافـور الكبـيرة العـاليـة، حتّى تلقّـاه الشيـخ مفتـوح الذراعين وقد أدرك عماه. وسرعان ما أحضره إلى المقهى، وأوهمه بأنه يرى.

* * *

اقترب الأسطى قدري الإنجليزي من جامع (خالد بن الوليد). خبّأ نفسه وراء السور، وأطلّ برأسه فقط، وراح يرقب من بعيد.

كان بوسعه أن يرى الأمير عوض الله وهو يجلس وحيداً عند المدخل الخارجي للمقهى. كما لمح ساق قاسم أفندي التي تطلّ وهي موضوعة على ساقه الأخرى. عرفها من رجل البنطلون الأسود، وكذلك عبد الله القهوجي، ولا شيء آخر. وظلّ الأسطى في وقفته حتّى رأى سليمان الصغير وهو يعبر الطريق ويقف أمام الجاويش عبد الحميد بائع السجاير الذي كان يعطي ظهره للميدان وهو يجلس تحت العمود الحجري القديم. وبينما هو مشغول بذلك لمح المعلّم رمضان وهو يغادر المقهى ويتّجه إلى ناحيته فاختبأ وراء الجامع وتراجع مسرعاً وعبر الميدان إلى محطّة (الترولّي باس) ونظر من هناك. لم يطمئن حتّى وجده يقف أمام حلاوة بائعة البرتقال. وعندما رآه وهو يحمل الكيس ويتناول بقيّة النقود ويستدير عاد إلى مكانه عند ناصية الجامع. أطلّ برأسه مرة أخرى ورآه وهو مازال عند مدخل المقهى المفتوح، يصافح الأمير عوض الله وصديقه يوسف بن محمّد أفندي النجّار الذي وقف إلى جواره.

(٦)

كان يعرف أنّ المعلّم صبحي تاجر الطيور، اشترى بيت الحاج محمّد موسى الذي يوجد به المقهى، إلاّ أنّه دفع نقوداً لسكّان الدور الأول والدور الثاني وأغراهم لكي يبحثوا لأنفسهم عن بيت آخر يسكنون فيه. ولم يكن يوسف النجّار يعرف سكّان الدور الأوّل. ولكن في الصيف، عندما كانوا ينقلون مقاعدهم عند سور الجامع،

كـان يرى في بلكـونة الـدور الثاني سيّـدة مسنّة وامـرأة شابّـة تـطلاّن عليهم، كـما يرى قـطع الثياب النسـائيّـة وهي منشـورة عـلى الحبـال المعلّقة. ولكنّ الأمير عوض الله الذي كان مهتّماً بـذلك المـوضوع لأنّ المقهى كان في الأصل مؤجَّراً لوالده المرحوم الحاج عـوض الله ومازال يحمل اسمه حتّى الآن، أوضح له أنّ المعلّم صبحي تاجر الطيور يريد أن يهدم البيت لكي يبني مكانه عمارة كبـيرة، وأنّ المعلّم عطيّـة الذي يستأجر المقهى في الوقت الحالي، ظلّ طوال الشهور الماضية وهو يأخذ النقود من المعلّم صبحي ويؤكّد له أنّه سوف يترك المقهى ثمَّ يضحـك عليه ولا يتركـه. وقال الأمـير إنَّ المعلّم صبحي كفر من المعلّم عـطيّة وخرب البيت من الداخل وخلع الأبواب والشبابيك وهـدم دورة المياه والسلّم وأحضر اللّجنة الحكوميّـة وتصرّف معها لكي تقـول إنَّ البيت قديم ولا يصلح أن يسكن فيه أحـد. ولكنَّ المعلّم عطيّـة تصرّف هو الآخـر مع اللّجنـة التي حضرت وقالت إنَّ البيت لا يصلح أن يسكن فيه أحد، ولكن يصلح لأن يكون به مقهى. وعاد يأخذ النقود بحجّة تدبير مكان آخر وهو يقسم أنّه سـوف يتركـه أوَّل الشهر القـادم ثمَّ لا يفعل حتّى حصل منه على ثروة كبيرة من المال.

وقـال الأمير إنَّ هـذه الحكايـة ليست جديـدة ولكنّها كـانت تحدث بشكل لا يعرفه إلاّ عدد قليل، ثمَّ أضاف بأنَّ كلّ شيء قـد تغيّر بعـد صلاة العصر. لقد ذهب المعلّم عطيّة وتبـوّل على غـير عادتـه في هذا الزقاق الذي يفصل بين المقهى ودكّان الفراخ. وبدون أن يحسّ وقف إلى جواره ولد من الـذين يعملون عند المعلّم صبحي وكـأنّه يـريد أن يتبوّل هو الآخر. وعندما فكّ حـزامه وأنـزل اللباس الـطويل جـرحه

بسكين حامية في جنبه العاري ثمَّ ابتعد. وقال الأمير إنَّ الشيء الواضح الآن أنَّ المعلّم عطيّة قرّر وضع حدٍّ للموضوع باستلام دفعة أخيرة من المال، ما دامت المسألة وصلت لضرب السكاكين. وهو يجلس حالياً مع المعلّم صبحي عند الحاج خليل في مخزن الحديد ومعهم الحاج حنفي اللّبان لكي يصلوا إلى الاتفاق النهائي. وقال إنَّه سوف يقوم بعد قليل ليعرف الأخبار، وطلب منه أن لا ينصرف حتّى يعود. ونظر يوسف النجّار إلى ساعته وقال إنَّه سوف يبقى لمدّة نصف ساعة أخرى لأنَّه مرتبط بموعدٍ في وسط البلد. وجاء المعلّم رمضان يحمل كيساً من البرتقال وصافح الأمير عوض الله ويوسف النجّار وهو يبتسم ويخفض عينيه ويقول: «عن إذنكم.» وباعد ما بين ساقيه ودخل إلى المقهى.

(المعلّم رمضان يأخذ نصيبه من البرتقال)

اتّجه المعلّم رمضان إلى الناحية اليسرى، وناول الكيس إلى الشيخ حسني وقال إنَّ هذا هو البرتقال، وطلب منه أن يقسِّمه بنفسه حتّى يكون مطمئنّاً، ولمّ جلبابه تحت بطنه الكبير وجلس هو يلتفت بوجهه الباسم، وعندما رأى قاسم يقرأ في الجورنال وعبد الله يقف أمامه صامتاً، اتّسعت ابتسامته واعتدل إلى الشيخ فوجده يضمّ الكيس إلى صدره المطوي ويسدّ فتحته بوجهه الكبير المدلّى، وقد خلع فردة حذائه المقطوع وبينَّ أصابعه القصيرة القائمة. ورفع المعلّم حاجبيْه وقد كشّر قليلاً: «الله. ما تتحرّك يا مولانا».

رفع الشيخ (حسني) يده أمام عينيْه الخاليتيْن وهو يقول: «أوعى تمدّ إيدك. افتح حجرك وأنت قاعد عندك».

وقال المعلّم رمضان وهو يقترب بمقعده ويرفع ذيل جلبابه بكلتا يديه: «حجري قدّامك أهه».

انتظر الشيخ قليلاً، ومدّ يده داخل الكيس، وانتقى برتقالة وقال: «أنا واحدة» وألقى بها في حجره، ثمَّ تناول واحدة أخرى وقال: «وأنت واحدة» وألقى بها في حجر المعلّم، وأخذ ثالثة وقال: «وأنا واحدة، مظبوط يا عمّ؟».

نظر المعلّم إلى البرتقالة الوحيدة في حجر جلبابه وقال: «مظبوط».

واستمرّت عمليّة التقسيم هكذا حتّى قال الشيخ حسني: «خلاص». وألقى بالكيس الفارغ جانباً وهو يلمّ حجر جلبابه القديم على نصيبه من البرتقال، واستبقى في يده واحدة كبيرة، وأبعد نفسه قليلاً وأخذ يأكلها ويسأل: «هو قاسم عمّال يقرأ إيه من الصبح؟».

ونظر المعلّم إلى البرتقالات الأربع المستقرّة في حجر جلبابه الكبير المفتوح، ثمَّ رأى حجر الشيخ حسني الممتلئ بالبرتقال، ولم يفهم. استغرق سريعاً في محاولة استعادة الطريقة التي تمّت بها عملية التقسيم وتأكّد له أنَّ الشيخ كان يقول فعلاً: «أنا واحدة وأنت واحدة». واستغرب المعلّم غاية الاستغراب وأراد أن يفهم أوّلاً ثمَّ يثير الموضوع مع الشيخ ولكنّه لم يجد الطريقة التي يفكّر بها لكي يفهم. وبادر بالقيام وهو يرفع ذيل جلبابه عن لباسه الطويل حتّى لا يلاحظ أحد شيئاً ممّا حدث، وتجاهل عبد الخالق الحانوتي الذي كان يدخل إلى المقهى واتّجه إلى الشلّة التي تعمل بالتدريب في نادي الجزيرة وتأتي لتلعب (الدومينو) بالنقود التي تكسبها، وجلس يتابع اللعب ويقشر

برتقالة لكي يشغل نفسه وينسى ولكنّه لم ينس وبدأ بطنه يرتجّ وابتسم لنفسه قائلاً إنَّ شيخ الكلب هـذا عبارة عن شيـطان رجيم؛ وأراد أن يسترسل ولكنّ الضحك غلبه وانفجر فيه ومدّ رأسه بينهم وقد طفرت دمـوعه من عينيـه المغلقتيْن وبـانت مؤخَّـرة رأسـه بشعـرهـا الخفيف. وعندئذ تراجعوا غاضبين وقد أمسك كلّ واحد منهم عدداً من أحجار (الـدومينو) وخبَّأه عن زميله جيِّداً وظلّوا هكـذا حتّى تنبّـه المعلّم إلى أنّهم قد كفّوا عن اللعب ورأى النظرة التي في عيونهم وحـاول جاهـداً أن يتـوقّف أو يعتذر وفكّـر أن يحكي لهم عن سبب ضحكـه وأوشـك فعلاً أن يقول ولكنَّه توقَّف فجأة وصرخ:

«الله. جرى إيه يا جدعان، بلاش نضحك كمان والاّ إيه؟».

وقـام غاضبـاً فوقعت الـبرتقالات الثـلاث من حجره وجنّ جنـونه واندفع يضربها بقدميه ويخفيها تحت المقـاعد وخـرج مسرعاً واتّجـه إلى شارع مراد وجلس عند مدخل دكّانه بقامته القصيرة الممتلئة وقد احمـرَّ وجهه وكأنّه فرغ لتوّه من البكاء. وخرج الأسطى سيّـد طِلِب الحلاّق من الدكّان المجاور ووقف بشعره الأبيض المنكـوش وسوالفـه الطويلة ووجهـه الصغـير المـدبـوغ، ثمَّ جلس إلى جـوار المعلّم الـذي قـال: «أفندية ولاد قحبة صحيح. لا دم ولا إحساس».

وعندما سأله الأسطى عن الموضـوع قصّ عليه مـا حدث من شلّة النادي ولكنّه لم يخبره عن حكاية الشيخ حسني والبرتقال.

واستمـع إليه الأسـطى سيِّد وهـو يبتسم ويضع سـاقاً عـلى ساق. وكانت هذه عادته التي يعرفها المعلّم جيِّداً. عندما يتحدّث إليـه أحد

وهو يقف في مكان أو آخر فإنّه يستمع إليه وقد ظهرت على ملامحه الدقيقة علامات من الحزن العميق. أمّا إذا تحدَّث إليه أحد وهو يجلس على مقعد أو كنبة فإنّه كان يستمع إليه وهو يضع ساقاً على ساق ويبتسم دون أن تظهر سنّته الذهبيّة، وينحرف شاربه الرفيع وتظهر على وجهه علامات من الإعجاب غير المريح. ولم يكن الأسطى من أبناء إمبابة الأصليّين إلاّ أنّه كان صديقاً قديماً للشلَّة. كان يعمل عند الأسطى بدوي الحلّاق وراء الكيت كات ويعيش مع أمّه الريفيّة عند التقاء قطر الندى مع فضل الله عثمان. لقد جاء قبل سنوات طويلة واستأجر الدكّان المجاور لدكّان المعلّم رمضان الفطاطري، وأخبر قاسم أفندي الذي كان يحلق عندهم أنّه سوف يستمرّ في العمل عند الأسطى بدوي حتّى ينتهي من إعداد الدكّان على خير ما يرام. وبدأ يأتي ويقضي سهرته أمامه مع أبو فاروق العلّاف ثمّ انتقل إلى جواره وتعرّف على المعلّم رمضان والشيخ حسني وعبد الخالق الحانوتي والأسطى قدري وبقية الشلَّة. وعندما اشتدَّ البرد اقترح الشيخ حسني أن ينتقلوا للسهر داخل هذه (العين) الخالية، ورحّب الأسطى سيِّد وصاروا يسهرون في الدكّان ويسمّونه العين. ومع الوقت فرشوها بالحصير وأجولة الدقيق الفارغة وزوّدوها بمنقد و(جوزة) كبيرة من النحاس الأصفر ومقطف من الفحم وكومة من صناديق المعسّل. كانوا يدخلون وينزلون الباب الصاج ولا يتركون سوى فتحة صغيرة فوق الأرض من أجل التهوية، ويثبّتون حاجزاً حديديّاً من الداخل حتّى لا يمكن لأحد أن يرفع الباب من الخارج ولا يشعلون المصباح بل يجلسون في وهج المنقد وضوء ميناء

الراديو الكبير. وفي لحظات الصفاء كان يتكدّر ولا يعرف أبداً كيف جاء بوالدته من (شبشير الحصّة) غريبّة إلى هنا وكيف ترك ناسه وعمل عند الأسطى بدوي وراء الكيت كات وتعلّم الصنعة واستأجر العين التي لم ينته من إعدادها على خير ما يرام إلاّ بعد أن قامت الثورة وألغيت الألقاب وما الذي جرى حتّى تزوّج ستّ مرّات وفعل كلّ ما فعل وصار يتكلّم ويتابع النساء وهو يجلس هكذا أمام العين وكلّما اشتهى امرأة يهيج ويتركها مفتوحة ويعود إلى البيت وتراه أمّه وتفهم لأنّها كانت تطلب من الزوجة أن تترك ما بيدها وتقوم لترى طلبات الأسطى. كان يغلق الباب على نفسه ويخلع ملابسه دون أن تذهب من دماغه صورة المرأة التي رآها وينام معها ثمّ يعود ليجلس أمام العين. وما إن تصادف ورأى نور زوجة الشيخ حسني وسمع عن طبعها حتّى كفّ عن اشتهاء أي امرأة أخرى حتّى ماتت وهي في عزّها. تلك الشيطانة البيضاء. وخلال زيجاته الستّ لم ينجب الأسطى سيّد أولاداً ولكنّه لم يكن مشغولاً بذلك، كما قال إنّه لم يطلّق أي واحدة لهذا السبب أبداً. كان يحبّها ويعاشرها معاشرة الأزواج وعندما يزهدها كانت تموت وحدها فيتزوّج غيرها. ولقد مضت عليه الآن سبعة أعوام، منذ وفاة والدته، وهو يحبّ زوجته الأخيرة لواحظ حبّاً شديداً. وكان يعبّر عن ذلك وهو شارب ويقول إنّه لا يكفّ عن الكلام معها طول وجوده في البيت لدرجة أنّه يتكلّم معها أحياناً أثناء جلوسه داخل المرحاض، ثمّ يصمت ويفكّر في هذا السرّ بينه وبين نفسه ولا يجد فيها ما يميّزها عن غيرها من النساء اللواتي تزوجهنّ وعاشرهنّ معاشرة الأزواج. لم تكن أجملهنّ ولا أكثرهنّ طاعة أو دراية

بـأمور السريـر أو أي شيء آخر. وكثيـراً مـا يـريـد أن يحـطّم رأسهـا بالقبقاب. ولكنّه أدرك على نحو ما أنّها المرأة التي سوف يمـوت قبلها. كان يقوم من النـوم بعد صـلاة الظهـر بقليل، يـأكل لقمـة وينزل في العصاري إلى العين يشتغل ويشرب الشاي ويدخّن السجاير ثمَّ يتّجه إلى مقهى عوض الله ويعود آخر الّليل فيجد لواحظ في انتظاره يأكلان ويجلسان على الكنبة وراء نافذتها العالية المفتوحة يتكلّمان وينظران إلى أشجار الشاطئ والجـانب الشرقي من ميدان الكيت كـات حتّى يؤذّن الشيخ حمادة الأبيض لصلاة الفجر من جامع (السنيّة) فيقومان للنوم. وفي السنوات الأخيرة أخذ يحضر اللّيالي الكبيرة لبعض الموالـد. بدأت بمـولد سيـدي حسن أبو طـرطور وسيـدي اسماعيـل الإمبابي والسيِّـدة زينب والسيِّـدة نفيسة وانتهت بمـولد السيِّـد البدوي وسيـدي ابراهيم الدسوقي.

ولبس جلباباً أبيض وتمنّى أن يصبح درويشاً. وصار يذهب للعـزاء في أيّ بني آدم يمـوت ولم يعد يـطيق أن يلمسه عبـد الخالق الحـانـوتي وكره مجرّد رؤيته. وكان عبد الخالق يعرف ذلك ويـطمئنه بـأنّه سـوف يعامله معاملة خاصّة عندما يموت ويغسله جيّداً ويقصّ أظافره حتّى لا يضايقه وهو يضع له قطعة القطن مع أنّه سوف يكون رمّـة ولن يشعر بشيء. وابتسم المعلّم رمضان وعاد لوجهه لونه الطبيعي وتنبّه إلى أنّـه مـا زال يمسك الـبرتقالـة التي قشّرها في المقهى فقسمهـا نصفين ومـدّ أحدهما إلى الأسطى سيّد وهو يدفعه بكتفه لكي ينبّهه. وتنبّه الأسطى ونظر إلى نصف البرتقالة ورأى وجه المعلّم رمضان ورفض بشدّة وقال إنّ كل ما في الأمر أنّه يريد أن يذهب إلى المقهى لكي يعرف مـاذا تمّ

في مسألة معزى العمّ مجاهد. وهزّ المعلّم رمضان رأسه موافقاً ثمّ ابتلع ما كان في فمه حتى لا يشرق إذا ضحك فجأة وطلب من الأسطى أن يسبقه وقال إنّه سوف يأتي هو الآخر بعد أن ينتهي من أكل البرتقال، ونظر في وجه الأسطى وقال إنّه ترك عبد الخالق الحانوتي في المقهى لكي يقوم بالواجب: «يعني ما تشغلش بالك خالص. أنت حاتروح تلاقي عبد الخالق الحانوتي قاعد مستنّيك، وموضّب كلّ حاجة».

ولم يفكّر الأسطى أن يردّ، بل تطلّع في قرف إلى وجه المعلّم رمضان الذي بدأ يرتجّ ويستسلم للضحك وهو يقول: «والله يا شيخ ما قصدت حاجة. وبعدين دي الأعمار بيدّ الله يا أخي».

هزّ الأسطى رأسه، وسحب الباب بلوحه الزجاجي الطويل، واستدار وهو يلعن في سرّه دين المعلّم رمضان ثمّ استغفر الله وظلّ يمشي حتى اقترب من مدخل المقهى، ورأى الشيخ حسني وهو يغادرها مع الضرير الآخر الذي يأتي لزيارته هذه الأيّام. وكان الأسطى يعتبر أنّ هذا الشيخ القذر هو الذي أضاعه أكثر من أيّ واحد غيره، لذلك توقّف في مكانه ونظر إليه وهو يسحب زميله الأعمى ويتّجه به ناحية الشاطئ وبصق ولعن دين الشيخ حسني هو الآخر. وعندما أراد أن يستغفر قال لنفسه «هو الواحد حايستغفر على إيه والّا على إيه؟».

(الشيخان)

لم يحدث أبداً أنّ الشيخ حسني قال، صراحة، إنّه يرى. ولكنّه أوحى للشيخ جنيد بذلك لأنّه تصرّف معه، منذ الوهلة الأولى،

تصرّف الرجل الذي يرى. كان يطلب منه أن يصعد، أو ينزل، أو ينحرف ليتفادى حفرة أو طوبة، ويتوقّف في الطريق ليصافح الناس الذين يراهم ويعرفهم، ويقلب له الشاي، ويصف النساء، كما كان يقطع كلامه لينظر في ساعته ويخبره عن الوقت.

ولقد استبشر الشيخ جنيد خيراً بهذه الصداقة واعتبرها التوفيق يأتيه من عند الله. كان مأخوذاً بتلك الدنيا الغريبة الملوّنة التي كان الشيخ حسني يقدّمها له وهو يسحبه على شاطئ النيل بعد أن أكل البرتقال. ولكنّ الشيخ حسني من ناحيته كان قلقاً لأنّه يعرف أنّ فترة طويلة قد مضت وهو متوقّف تماماً عن مزاولة هذا العمل. لقد كان بوسعه فيما مضى، إذا تصرّف تصرُّفاً أعمى، أن يبادر إلى تصحيح الأخطاء بأن يقول أيّ كلام ويسوق الهبل على الشيطنة، ولكنّه لا يستطيع أن يفعل ذلك مع الشيخ جنيد. «شوف، هو حلو، وراجل بتاع ربّنا ويتعاشر. لكن عيبه بقى، أنّ دمّه تقيل شويّة، واقف، زيّ ما تقول كده له رهبة». ولذلك كان الشيخ حسني يدقّق في كلّ شيء ويهتمّ أكثر من اللازم ولا ينسى أنّ الناس تناديه أمام الشيخ جنيد بقولهم يا شيخ حسني، ولذلك أراد أن يفسّر له، بصورة عارضة سبب تسمية الناس له باسم الشيخ حتّى لا يذهب تفكير الرجل إلى بعيد.

ولكي يزيل كلّ شكّ حول هذا الموضوع بدأ يحكي له كيف أنّ أباه عندما رآه اختلط عليه الأمر وألحقه بكتّاب الشيخ محمّد قطب في شارع مراد الذي هو شارع السوق حيث حفظ القرآن. ومع أنّ الأعمى لا يستوي مع الأعور ولا الغني يستوي مع الفقير ولا الطويل

مع القصير وهكذا، فقد ظـلّ الناس ينـادونه بـاسم الشيخ حسني ولا يعاملونه إلّا هكذا. وعندما سأل عن السرّ في هذه المعاملة عرف أنهم ينادونه باسم جدّه الأول الذي جاء إلى إمبـابة وزرع شجـرة الكافـور الكبـيرة العاليـة: «عارف الشجـرة اللّي اتقـابلنا تحتهـا أول مرّة؟ هيـه دي». وقال إنّه كره هذه الكلمة التي لا تناسبـه، ثمّ استدرك حتّى لا يجـرح الشيخ وقـال إنّ هذه الكلمـة الجليلة لا تعني في إمبابـة أنّ من يحملها سوف يصبح مع الـوقت من رجال الله الصـالحين مثـل الشيخ جنيد. أبداً. هذه الكلمة في إمبـابة معنـاها أنّ الأمـر لا بدّ أن ينتهي بصاحبها حتماً، مهما كان مركزه، إلى أن يصير مقرئاً في قـرافة سيـدي حسن أبو طرطـور. لذلـك كره هـذه الكلمة ولم يلبس أبـداً عمّة ولا جبّة لأنّه كـان من يومـه لا يهوى إلّا الفنـون. ولقد استـطاع بإصراره وقوّة إرادته التي ورثها عن والدته أن يفلت من مصيره. وصمت قليلاً ثمّ قال فجأة إنّ الـدكتور طـه حسين نفسـه لم يبذل أي جهـد في هذه النـاحية، أمّـا هو فقـد دخل معـارك لا يمكن تصوّرهـا. صحيـح أنّ الوضع مختلف لأنّ الدكتور كما تعرف فضيلتـك كان محـروماً تمـاماً من نعمة النظر، ولكن هـذا لا يمنع أنّ عميـد الأدب العربي لبس العمّـة والجبّـة والتحق بـالأزهـر الشريف، أمّـا أنــا فقـد استكملت دراستي الـدينية في المعهـد العالي للمـوسيقى العربيـة، وكنت أوّل دفعتي سنة ستّـة وثلاثـين وفي جيبي الآن صورتي وأنـا أستلم الشهادة من حضرة صاحب الجلالة الملك. وأخرج ورقـة قديمـة من مجلّة المصوّر وفـردها بينه وبين الشيخ وجعله يلمسها وقـال «شوف، الملك أهـه، وأنا أهـه لابس الـطربوش وفـرحان، وبـاسلّم عليه بـايدي اليمـين». وطواهـا

وأعـادها إلى جيب سـترته الـداخـلي. واشتغلت مـدرّسـاً للمـوسيقى ومازلت حتى هذه اللحظة التي نحن فيها وإن كان لا ينوبني من ذلك مليم واحد لأنّ المصاريف والمسئوليات كبـيرة جداً. وأنـا الذي درّبت كلّ الملحّنين والمطربين الذين تسمع عنهم وخصوصاً عـلى ألحان عبـد الوهاب القديمة و«الربيع» و«أوّل همسة» لفريد. وتوقّف الشيخ حسني على حافّة الشاطئ وقال: «مساء الخير يا واد يا زين».

وردّ زين المـراكبي من تحت أوراق الخـروع الكـثيـفـة، ورحّب بالشيخ قائلاً: «أهلاً يا مولانا».

واتّجـه هو بـالكلام إلى الشيـخ جنيد وسـأله عن رأيـه لو استـأجـر فلوكـة، وقبل أنّ يـردّ عليه أخـذه من تحت إبـطه وهـو يقـول: «والله فكرة، يا واد يا زين».

وسمع زين الكلام فصعد الدرج الحجري وهو يحكم لفّ الكـوفية على رقبته وأذنيه، وهمس في أذن الشيخ محرجاً أن يدع ذلك المـوضوع جانباً: «والنبي يا شيخ حسني».

وشبّ الشيخ على أصـابع قـدميه وهمس في أذن الشيـخ جنيد بـأنّ الولد خـائف بسبب ظروف الشيـخ جنيد نفسـه. قالهـا دون حياء ثمّ التفت إلى زين وأخبره بصوت عالٍ أنّه يعرف سبب خوفـه ولا داعي لأيّ كلمـة زيادة في هـذا الموضـوع. وطلب منه أن لا يخـاف وأخـبره بأنّهما سوف يـظلّان إلى جوار الشـاطئ ولن يدخـلا في الغميق، وراح يغمزه في كتفه ويدفعه للنزول وهو يسحب الشيخ جنيد وراءه ويقـول إنّ فضيلته ضيف عزيز على إمبابة ولا يصحّ أن يرفض له طلباً، وإنّـه

سوف يبسط زين ويعطيه ما يريد. وأصرّ أن يجلسها بنفسه داخل القارب حتّى يكون مطمئناً. وأنزلها زين المراكبي إلى القارب، وجلس الشيخان كل في وجه الآخر. الشيخ حسني قال: «يا سلام، الواحد بقى له كتير ماركبش مركب».

والشيخ جنيد ضمّ الجبّة النظيفة على ركبتيه المتقاربتين وابتسم مسروراً وقد شعر بالدفء على خدّ الماء، وقال إنّ الخيرة حقاً فيما اختاره الله.

(فاطمة)

من قطر الندى جاءت فاطمة تخطو على مهلها إلى فضل الله عثمان. كانت تلمّ أطراف الملاءة الحريريّة تحت إبطها الأيسر، ويدها العارية تروح وتجيء بغوايش الذهب مع حركتها الكسولة الواثقة. وأمام الدكان، تركت الملاءة تنزلق من على رأسها وأظهرت شعرها الكثيف وابتسمت لها. ومن خلف، رأى سمانة ساقها اليمنى، تضوّي تحت هذه الملاءة الحريرية السوداء.

* * *

«ربّنا يهدّ القوي».

هكذا قال فاروق وهو يتابعها بعينيه، وألقى بعقب السيجارة التي أعطاها له يوسف النجّار، وترك جابر يطلّ وحده من فتحة الدكان على فضل الله عثمان وعاد إلى البيت.

كانت أمّه قد غابت تماماً في دخان السمك المشوي وهي تجلس في الحوش غير المسقوف الذي أحاطت به الجدران الخلفية للبيوت

القديمة. وقال لها وهو يدخل إلى الحجرة «الله يرحمه بقى».

وأغلق الباب وراءه ورقد على الكنبة ولكنّه لم يتمكّن من النوم فقام وأخذ سيجارة وخرج وجلس على مقربة منها. كانت تغمر السمك بالردّة الجافّة وترصّه على صاجة الشوّاء فوق الوابور. وبعد أن تحترق طبقة الردّة وتدخّن كانت تقلبه ليستوي ثمّ تمسك كلّ سمكة من ذيلها وتطشّها في طبق الماء المحوّج وتتركه يبرد حتّى ترصّ الصاجة مرّة أخرى، وتنتشله من الماء وترميه برفق في غطاء الحلّة المقلوب. وعندما انتهى من سيجارته جاء وطلب فاروق من أمّه أن تنتهي من السمك وتعمل لهما كوبين من الشاي، وأخذه ودخلا إلى الحجرة.

وسأله شوقي إن كان قد سمع شيئاً عن الليلة التي سوف يقيمونها للعزاء في العمّ مجاهد الله يرحمه، وقال فاروق إنّه لم يسمع، وقال شوقي وهو يضع ساقاً على ساق إنّهم سوف يقيمون ليلة كبيرة في ميدان الكيت كات، وأنّهم سألوا عنه في المقهى لكي يحضر لهم ماكينة الصوت من عند خليل. وقال فاروق: «طيّب وأنا مالي؟».

«أصل أنا قلت لهم إنّ خليل قريبك، وممكن يعمل لك تخفيض».

«آه. قصدك أروح أخد الفلوس، وأزوغ؟».

«ومالكش دعوة بعد كده».

«أنت بتتكلّم جد؟».

«هي الحاجات دي فيها هزار؟»

«الله، والمكنة، والناس؟»

«أنت مالك يا أخي؟»

«أنا مالي ازاي، مش لازم أفهم؟»
«أنت دلوقت عاوز أيه؟ ما تقول، عاوز أيه؟»
«عاوز أفهم».
«لأ. أنت عاوز مكنة، صح؟»
«صح».
«يعني أنت دلوقت عاوز أيه؟»
قال فاروق: «عاوز مكنة».
«المكنة موجودة. عاوز أيه تاني؟»
«موجودة فين؟»
«عند خليل».
«وبعده كده؟»
«وبعد كده أنا حاتصرّف».
«مع خليل؟»
«أيوه مع زفت».

وعندما سأله فاروق من الذي سوف يدفع النقود قال شوقي إنّ قطر الندى وفضل الله عثمان كلّه وشارع السوق سوف يساهمون في كلّ شيء وقال:

«يا ساتر يا أخي، دانت أتاريك حمار بشكل».

وطلب منه أن يقوم ويرتدي ملابسه، وصاح منادياً أمّ فاروق لكي تسرع بإحضار الشاي.

* * *

أمّ فاروق اعتادت أن تدخل على فاروق وتنظر إلى ساقيه العاريتين

وإلى البطّانية التي يكون قد أوقعها من على الكنبة وتصيح فيه أن يقوم ويـذهب لكي يبحث عن عمل. كـان لديهـا اعتقاد ثـابت أنّ الوقت الملائم للبحث عن العمل هو الخامسة صباحاً، أو قبل ذلك، لأنّ من يخـرج مبكراً تكـون فرصتـه أكبر. وعنـدما أخـبرها (فـاروق) أنّـه لا يستطيع أن يستلم عملاً محترماً لأنّه لم يذهب إلى الجيش طلبت منه أن يعيش عيشة أهله ويستلم أي عمل. وظلّت تـوقظه حتّى أصبـح يقوم وحده ويرتدي ملابسـه ثمّ يغادر أمـير الجيوش ويـذهب إلى فضل الله عثمان ويتّجه إلى بيت صديقه شـوقي وينادي بصـوت طويـل منغوم: «شوقي. شوقي». حتّى يقوم شوقي من النوم ويرتدي ملابسه ويرافقه لكي يبحثا عن العمل.

في الأيام الأولى جرّب شـوقي كلّ الـوسائـل الممكنة لكي يتخلّص من فـاروق. خرج لـه بالجلبـاب وسألـه عن سبب صياحـه في ذلـك الوقت ثمّ استنكر كلامه وتركه ودخل لكي يواصل نومه ولكنّ فاروق عاد يقول في صوته الطويل المنغـوم «شوقي. شـوقي». بعد ذلـك لجأ شوقي إلى الخديعة. وعندما انصرفوا آخر الليل من عند جابـر أوصله حتّى البيت لأنّ فـاروق كان يخـاف من الكلاب وصـافحـه وابتسم في وجهه واتّجه إلى منزله ومـلأ صفيحة بـالماء الـوسخ وتبـوّل فيها وفتـح مقبض الشيش وتركه مغلقاً كما هو وجلس ينتظر. وعندما جاء فاروق وبدأ ينادي تركه قليلاً ثمّ وقف على الكنبة ووضع يديه القويتين عـلى ضلفتي الشيش ودفعهـما مرّة واحـدة فاصـطدم الشيش برأس فـاروق وألقـاه على ظهـره، وحينئذ حمـل صفيحة المـاء الوسـخ ودلقهـا عليـه وأغلق النافذة وهو يقول: «أنا لازم أموّتك يا ابن الوسخة». وسحب

الغطاء على رأسه وأدار نفسه إلى الحائط وقد أخذته البهجة لنجاح خطّته. وما إن راح في النوم مرّة أخرى حتّى قام على صوت فاروق وهو يقول: «شوقي. شوقي».

ظلّ شوقي ثابتاً في مكانه، ثمّ أزاح الغطاء بهدوء وقلب نفسه على وجهه وقام معتمداً على يديه حتّى لا تصدر الكنبة صوتاً واقترب بعينه من فتحة الشيش وهو يكتم نفسه ولكنّه لم يستطع أن يتبينه إلّا عندما تكرّر النداء. كان هناك عند الركن الأسفل من الناحية اليمنى. وما إن مدّ يده ولمس المقبض حتّى كان فاروق قد اختفى.

وعندما التقيا في المساء عند جابر قال له: «كده؟ طيب». وأقسم بحياة أمّه أن يتركه بعد ذلك ينبح مثل الكلب: «لغاية الشارع كلّه ما يضحك عليك». وفي اليوم التالي تركه ينادي ولم يهتم. ولكنّ فاروق ظلّ يقول: «شوقي». حتّى صلاة الظهر. وقفز شوقي وخلع جلبابه وخرج له بالفانلّة واللّباس يريد أن يأكله ولكنّ فاروق جرى منه عند البحر وراح يضحك. وعندما رأى أمّ شوقي وهي تشتري الجبنة من عند جابر أخبرها أنّه يأتي كلّ يوم لكي يأخذ شوقي معه إلى العمل ولكنّ شوقي لا يريد. وسألها فاروق إن كانت تسمعه وهو يفعل ذلك أم لا. أجابت أمّ شوقي بالإيجاب وقالت إنّها لم تكن تعرف أنّه ينادي عليه من أجل العمل. وفي اليوم التالي توجه فاروق وبدأ ينادي عليه حتّى يسمع خناقة كبيرة وراء شيش النافذة المغلق. ولم تمرّ غير فترة أخرى من الوقت خرج بعدها شوقي وقد ارتدى ثيابه كاملة. وعندما تهلّل فاروق ظلّ هو ينظر إليه غاضباً، ثمّ ابتسم.

ظلّا يغادران البيت في الساعة السادسة تماماً. وكانا يلتقيان ببعض

أصدقائهما من العاملين في المطبعة الأميريّة ويسيرون جميعاً حتّى ميدان الكيت كات. وعندما يصلون إلى المحطّة يتلفّتون هنا وهناك فلا يجدون لشوقي أثراً. ولقد تنبّهوا له بعد ذلك ولكنّه كان يختفي. وفي كلّ مرّة كان فاروق يعتذر بأنّه سوف يضطر للانصراف ليرى «ابن القحبة ده راح فين». ويذهب ناحية نادي ناصر الرياضي في الجانب الآخر من الميدان ويتبوّل في المراحيض الحكومية عند السور الخارجي للنادي ثمّ يعود مرّة أخرى ويمّر على حسنة بائعة الجرائد ويأخذ منها الأهرام والأخبار والجمهورية وكلّ المجلاّت الأسبوعية ويتّجه إلى مقهى عوض الله وينضم إلى شوقي الذي يكون قد طلب كوبين من الشاي وجلس في انتظاره. وفي ذلك الوقت المبكر يقوم المعلّم عطيّة نفسه بخدمتهما. وكانا يظلاّن حتّى ينتصف النهار ويشعران بالجوع ويعيدان الجرائد والمجلاّت إلى حسنة وينصرفان على لقاء في اللّيل. كان شوقي يقول لأمّه إنّهما تحت التمرين وسوف يستلمان العمل ابتداء من الغد ولذلك يريد أن يأكل الآن وينام حتّى يقوم مبكراً. أمّا فاروق فقد كان يتجه إلى منزله في حارة أمير الجيوش ويدخل إلى الحجرة الأرضيّة، بينما تكون أمّه قد صعدت إلى ابنتها التي استشهد زوجها لتجلس في الشمس وتلاعب الأولاد، ويأخذ السنّارة من وراء الباب، ويذهب إلى البحر.

* * *

كانت أمّ فاروق قد انتهت من شيّ السمك وعمل الشاي. وعندما دخلت أخبرها فاروق أنّهم يجمعون التبرّعات من أجل العمّ مجاهد وطلب منها أن تعطيه عشرة جنيهات لكي يساهم بها نيابة عن الأسرة

فقالت: «والنبي تتنيّل على عينك وعين اللّي خلّفك».

وقال فاروق وهو يشرب الشاي: «عليّ النعمة أنت مره فقر».

وارتدى ملابسه واتّفق مع شوقي على التفاصيل الخاصّة بمسألة الماكينة، وأشعلا سيجارتين وخرجا من الباب.

عند خروجهما كانت فاطمة تغادر البيت المجاور وقد لوّنت جفنيها بالأخضر الفاتح، وكحّلت عينيها بالكحل البلدي الفاحم، ووضعت حول كتفيها شالاً من القطيفة السوداء له أطراف مشغولة من الخيوط الحريرية المجدولة التي تفرّقت على نهديها الصغيرين، تحت فانلتها الصوفيّة ذات الياقة والأكمام.

ابتسمت لهما وتقدّمتهما في حارة أمير الجيوش إلى فضل الله عثمان. مرّة أخرى رأى فاروق سمانتي ساقيها العاريتين، وردفيها الناضجين تحت جونلّتها البنيّة المحبوكة، ورأى الحذاء الشمواه بكعبه الدقيق العالي، وعنقه القصير المحشو بالفراء المقلوب.

(٧)

عندما ابتعد المعلّم رمضان عن المقهى، تخلّى الأسطى قدري الإنجليزي عن حرصه الزائد وأراح نفسه في وقفته الطويلة، واستمرّ يراقب من بعيد، حتّى خرج الشيخ حسني برفقة رجل ضرير آخر.

لقد أخبرته أمّ عبده أنّ الشيخ حسني جاء للسؤال عنه أكثر من مرّة وقال إنّهم لا يرونه بالمقهى: «أمّال أنت بتخرج كلّ يوم تروح فين؟».

وأخبرها الأسطى وهو يدير وجهه إلى الناحية الأخرى أنّه يذهب

إلى المقهى ولكنّ الشيخ لا يراه لأنّه أعمى. ولكنّ السؤال عنه جعله، وهو المعذّب أصلاً، يضطرب أشدّ الاضطراب ويخاف ويتأكّد أنّ الواقعة قد وقعت وأنّهم عرفوا كلّ شيءً. ومع ذلك وجد نفسه مدفوعاً إلى الاقتراب من المقهى فاقترب. وفي الفترة الأخيرة بات يقضي سهرته كلّها وهو واقف يطلّ من وراء الجامع ويراهم وهم يجيئون وينصرفون دون أن يجرؤ على الذهاب بنفسه إلى هناك.

والحقيقة أنّ الأسطى لم يكن رجلاً خفيفاً أو قليل القيمة بل إنّه ظلّ طول حياته وهو يعتزّ بنفسه ويدرك أنّ مقامه محفوظ وأنّه يختلف عن هؤلاء جميعاً. ومن هم؟ الشيخ حسني؟ رمضان الفطاطري الهايف؟ سيّد طِلِب المسخرة؟ قاسم الذي يقعد طول النهار واللّيل في انتظار نظّارة لكي يصلحها؟ عبد الحميد الذي يجلس على الرصيف يبيع السجاير الفرط؟ كلّهم همج أولاد كلب. لقد عمل هو مع الإنجليز في شركة ماركوني ويعرفون جميعاً أنّه شرب الكثير من طباعهم وأخلاقهم. وبرغم كلّ شيءفلقد كان له ذوقه الخاص الذي تجلّى أكثر ما تجلّى في اختياره لأحذيته ذات المقدّمة العريضة والنعل المفتوح، وعقده للكوفيّة المربعات على رقبته النحيلة السمراء. كما كان محبّاً للكلاب عطوفاً عليها، وكثيراً ما رُئِيَ وهو يطعمها على المقهى. تلك الكلاب التي كانت تعرفه بدورها وتقبل عليه وتتبعه أينما كان الطريق الذي تصادفه فيه. كان الأسطى يتكلّم الإنجليزية مثل أهلها. ولقد شجّعه رؤساؤه من الإنجليز وأهداه الرئيس ماكميلان مجلّداً قديماً يحتوي على أعمال شكسبير الكاملة التي أدمن قراءتها حتّى صار يتلوها عن ظهر قلب وهو يركب الدرّاجة ويقوم

بعمله في توزيع البرقيات هنا أو هناك حتّى صار صيته بين العملاء وعساكر المرور أنفسهم. وفي حفلات الاستقبال الخاصّة بالسير كامبل أو أيّ لورد من اللوردات الذين يزورون الشركة كانوا يستدعونه إلى النادي أو إلى منازلهم لكي يشرب الكونياك ويقف أمامهم ويتلو عليهم بصوته العميق الدافئ مقاطع من الملك لير أو ماكبث أو خطاب الممثّل في رواية هاملت. ثمّ كرّموه وجعلوه في كلّ الحفلات السنوية يقوم بدور عطيل أمام ديدمونة وأميليا الإنجليزيتين وتحت إشراف المخرج الإنجليزي. كان الأسطى متيّماً بخطبه التي تبدأ بالقول: «أحبّني أبواها». أو «من الآن وإلى الأبد». أو «اسمع منّي كلمة أو كلمتين قبل أنّ تنصرف» كما كان متيّماً بالآنسة مارجريت أو ماجي ابنة الصرّاف التي كانت تقوم أمامه بدور ديدمونة وفكّر لو يتزوّجها. كان ينتظرها من العام إلى العام ليضع يديه حول عنقها الجميل ويخنقها ويرى الحبّ الحقيقي في عينيها الزرقاوين وهي تميل تحته على الفراش وتشهق له أنّ يرحمها وتموت. وكسب احترام الزملاء وتجاوزهم في المكافآت والعلاوات حتّى كبر مرتّبه وصار معروفاً. لولا ذلك ما ملك البيت الذي يعيش فيه الآن. قديم حقاً وإيجاره قليل، ولكنّه مع دخله من عمله كمشرف مؤقت على دفتر الحضور والانصراف في مصنع شركة القاهرة للأدوات المعدنيّة يجعل أموره مستورة. البنت تزوجت وأنجبت قدري الصغير، وعبده في المعهد العالي التجاري بالزمالك. وغمره فجأة شعور بالارتياح لأنّ اسمه الأسطى قدري الإنجليزي وأنّه كان جديراً بأن ينشأ في حي آخر أو يولد لوالدين آخرين. مع أنّه قضى عمره يرتاب ولا يعرف تماماً إن

كانوا يسمّونه الأسطى قدري الإنجليزي على سبيل السخرية أو يسمّونه هكذا لصفة محترمة فيه مثل إجادته للّغة الإنجليزية أو مثل نظافته وأدبه. وعندما قال لنفسه إنّ العمّ عمران يعرف ستّ لغات غير العربيّة والنوبيّة ومع ذلك لم يناده أحد باسم أيّ لغة منها، طرد ذلك من رأسه ولم يجد فيه أيّ فائدة لأنّه كان يحسّ مثل رجل منكوب. وعاودته الذكرى الأليمة وتذكّر قول عطيل «ولا المشروبات المخدّرة في العالم كلّها تستطيع أن تردّك إلى النوم اللذيذ، الذي استمتعت به بالأمس» وقال لنفسه ياليته كان الأمس ولكنّها ليالي طويلة لم يذق فيها طعم النوم اللذيذ أو غير اللذيذ. لا يذكر أنّه نام. بدأ ذلك عندما عبّرت أمّ عبده في السهرة عن رغبتها في أكل لحمة رأس من عند زغلول بائع السمين. ولكنّ الأسطى بوغت والتفت إليها بعينيه الصغيرتين اللامعتين وشاربه الأبيض المنكوش على جانبي وجهه الأسمر الضامر. لم يردّ عليها لأنّه دهش أن يجدها تعرف هذا الاسم وتنطقه أمامه، لأنّه لم يكن يقبل زغلول ولا من يتعاملون معه. كان يراه وهو يقف وراء العربة وقد زجّج حواجبه عند الأسطى سيّد طِلِب الحلّاق ويعاكس النساء والبنات ويغمز بعينه وهو يقول بصوت مسموع: «احنا بتوع السمين» بينما اجتمعت وراءه في مدخل البيت المظلم شلّة من مقاطيع إمبابة تدخّن سجاير الحشيش وتشرب زجاجات البيرة. كان ذلك يثير في الأسطى قدري قدراً هائلاً من الاشمئزاز والكراهية التي لا تفوقها إلّا كراهية الأسطى سيّد طِلِب الحلّاق لشخص عبد الخالق الحانوتي. ورغم أنّه دهش عندما سمع أمّ عبده وهي تنطق اسم زغلول وتلوك لبانة في جانب فمها الكبير

الواسع، ورغم أنّه لم يخف هذه الدهشة فإنّ المرأة ظلّت تلحّ في السؤال حتّى خشي الأسطى أن تقلّ عقلها وتذهب بنفسها إلى شارع مراد لتشتري من زغلول: «وتبقى فضيحة» فقال دون أن ينطق اسمه، إنّ لحمته مقرفة ولا يعرف أحد من أين يأتي بها، ولذلك سوف يذهب بنفسه في أحد الأيام إلى المذبح، لأنّ من يريد أن يأكل لحمة رأس فعلاً عليه أن يتوجّه ويحضرها من هناك. وفي اليوم التالي أيقظته أمّ عبده وقد استعارت مقطفاً لكي يذهب إلى المذبح.

اشترى الأسطى رأس عجل كبيرة، ووضعها في المقطف وركب الترام وركن المقطف إلى جوار ساقه اليسرى وجعله يميل قليلاً، وأخرج أذن العجل وداس عليها بحذائه كي لا تضيع وراح يقرأ في جريدة الأخبار عن الحكومة التي سوف تخفّض الأسعار. والولد النشّال لاحظ انشغال الأسطى وأعجبه المنظر وأخرج الموسى الحامية وقطع أذن العجل بهدوء وتركها تحت حذاء الأسطى بمقدّمته العريضة ونعله المفتوح، وأخذ الرأس والمقطف ونزل بهما. وعندما وصل الترام إلى سوق الخضر طوى جريدته وانحنى ليحمل رأس العجل ويعبر بها كوبري إمبابة ولكنّه وجدها قد اختفت تماماً بينما هو يدوس على الأذن الرمادية الكبيرة التي انفصلت بعناية، ولمح طرفها المقطوع المعرّق بالدم وأوشك أن يمدّ يده ويتناولها ولكنّه لحق نفسه بآخر لحظة واعتدل وغادر الترام بهدوء ووقف على المحطّة صامتاً. وعندما تحرّك الترام نظر بعينيه بين الأقدام المزدحمة وتحت المقاعد التي كانت تمرّ أمامه وفكّر أنّه حتّى لو رآها الآن لمنعه الخجل من الصياح: «حاسب» أو القفز مرّة أخرى إلى الترام وهو يجري لكي يخلّصها من بين الأقدام

ويعود بها لأنّه ربّما وقع وهو يجري أو قال أحد الركّاب إنّ الرأس لا تخصّه: «وتبقى فضيحة» ولكنّه لم يرها، وذهب وعبر الكوبري خالي اليدين واتّجه إلى البيت وقال إنّ الرؤوس التي رآها في المذبح لم تعجبه. وعندما سألته أمّ عبده عن مقطف أمّ روايح شخط فيها وقال: «إنّه ضاع، وصعد إلى الفراش وأعطى وجهه للجدار ونام، وقام من النوم غاضباً وخرج لكي يذهب إلى المقهى. وبينما هو يمشي في طريقه سمع زغلول وهو يقول ضاحكاً: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» واضطر الأسطى أنّ يلتفت وقد زاد غضبه. وحينئذ رأى رأس عجل كبيرة معلّقة على مقدّمة العربة وفي فمها حزمة من الجرجير وتأكّد له أنّها كانت بأذن واحدة. واستمرّ الأسطى في طريقه ولكنّه لم يذهب إلى المقهى. تباعدت أقدامه وشعر كمن يسير بين الناس عارياً من الخلف ونكست الكلاب التي تتبعه رؤوسها. ولعدّة أسابيع ظلّ يخرج من البيت ويسير على النيل حتّى المنيرة ويلفّ ويعود من عند مدينة العمّال إلى محطّة السكّة الحديد حتّى سيدي اسماعيل الإمبابي ثمّ يدخل من عند مدرسة الجرن حتّى أحمد عاشور البقّال ومن مراد كان يتسلّل إلى قطر الندى ثمّ إلى فضل الله عثمان كي يعود إلى البيت.

وفتح الصندوق وأخرج المجلّد القديم. وما أكثر اللّيالي التي خبّأه فيها تحت معطفه واتّجه به ناحية المركز وجلس على شاطئ النيل ليعيد قراءة عطيل تحت مصابيح الطريق ويفكّر لأنّه رأى نفسه اليوم يعيش المحنة ذاتها. كان كاسيو الجبان هو زغلول وأمّ عبده هي ديدمونة والمنديل المضبوط هو رأس العجل والعلامة على طرف المنديل هي

الأذن المقطوعة. وإياجو الذي كان يقوم بدوره الخواجة شقّال؟ وفكّر الأسطى ولكنّه لم يعثر عليه وقال إنّه على أيّة حال لم يكن بحاجة لمن يدلّه على الرأس أو يرشده مثلما أرشده إياجو إلى المنديل. إنّه رآها بنفسه وبأذن واحدة. لقد خاطبه إياجو قائلاً: «لا علم لي بهذا المنديل، أنا واثق أنّه منديل زوجتك، ورأيت اليوم كاسيو وهو يمسح به لحيته». ما الذي بوسعه أن يقوله الآن؟ وراح الأسطى يغير الكلمات ويقول: «لا علم لي بهذا. ولكن مثل هذا الرأس أنا واثق أنّه رأسك، ورأيت اليوم زغلول يعلّقه على عربته». وقال الأسطى آه. آه لو كان قد تناول الأذن المقطوعة وأحضرها معه ولم يتركها في أرضية الترام، لأمكنه حينئذ أنّ يقطع الشك باليقين. ولكن كيف؟ قال إنّه كان بوسعه أن يشتري الرأس المعلّقة ويذهب بها إلى البيت ويطابق عليها الأذن المقطوعة التي أحضرها. ولكنّه لم يحضرها. وشعر بالحرقة في قلبه وأوشك أن يثور ثمّ وجد نفسه يكفّ عن إثارة المشاكل حول سهر عبده بالخارج. لم يعد يسمع له أي صوت. إذا تكلّم رأى أن يهمس. واختفت اللمعة من عينيه ولم يعد راغباً في التطلّع مباشرة إلى أيّ عين تصادفه ولم يعد يطلب لنفسه طعاماً أو كوباً من الماء. ولاحظ أنّ معدته لم تعد منتظمة. كان يكثر من إخراج الرياح ويعضّ على شفته السفلى ويفتح الحنفية لكي يداري بصوت الماء على الضجيج الذي يعمله الإسهال وهو يجلس وحيداً داخل المرحاض. وعندما قام مرّة بواجب الزوجية مع أمّ عبده تبيّن أنّه أصبح يسرع في الإنزال. ومع الوقت نحل عوده وتهدّل شاربه. ولمّا سمع أنّ الشيخ حسني سأل عنه أكثر من مرّة أصبح يغيّر خطّ سيره. كان يخرج من فضل الله عثمان إلى شارع السلام من الخلف حتّى جنينة المدير ويمرّ

من عند الراهبات ثمَّ يعبر شارع السودان ويمرّ من بين إسكان ناصر الشعبي إلى نادي طلعت حرب ويظلّ يمشي داخل الجنينة المواجهة لكوبري الزمالك وهو يتفرّج على المدخل الجانبي لمسرح البالون حتّى يصل إلى طريق النيل ويتّجه يساراً ويتقدّم عائداً إلى ميدان الكيت كات، ويقف من بعيد هكذا، ويتّجه بعينيه إلى هناك. وحينئذ تراجع الأسطى برأسه لأنّه رأى سيد طلب الحلّاق، وهو يأتي من شارع مراد، ويدخل إلى المقهى.

(علاقة)

عندما ابتعد الأمير عوض الله ليعرف ما جرى بين المعلّم صبحي والمعلّم عطية في مخزن حديد التسليح، ظلّ يوسف النجّار واقفاً في مدخل المقهى.

كان بوسعه أن يقضي نصف ساعة أخرى قبل نزوله إلى البلد ليلتقي مع فاطمة. سوف يأخذها إلى شقّة مجيد يقضي معها فترة من الوقت ثمَّ يعود. وفكّر أن يجرّب الكلام مع العمّ عمران حول موت العمّ مجاهد. وعندما جلس بجواره أشاح بوجهه إلى بعيد دون أن يلتفت إليه أو يبدو عليه أنّه رآه. وهو كثيراً ما يفعل ذلك. وكان يوسف يعرف أنّه لو تشاغل عنه أو تركه وانصرف فسوف يغضب أكثر. كان عليه أن يتحسّس طريقه في حذر، وأن يدع الكلام بينهما يأتي بصورة طبيعية. ولكنّه لم يكن راغباً، ولم يكن لديه وقتٍ كافٍ. لقد كانت العلاقة بينهما تصحو وتموت، ثمَّ تصحو وتموت، هكذا، لياليَ طويلة كانا يتركان الجيمع ينصرفون بعد أنّ يُغلق المقهى ويذهب

كـلّ واحد إلى بيتـه ويسيران عـلى مهلهما تحت أشجـار الشـاطئ حتّى يصلا إلى كوبري الجلاء أو كـوبري بـديعة كـما يسمّيه العمّ عمـران، الـذي كان يـرتدي معـطفه الـطويل عـلى بيجامتـه الكستور، وخفّـه الصـوفي. يحكي بصوتـه الخفيض الممتلئ وشعـره الأبيض وهـو يضـع ذراعه في ذراع يوسف النجّار بسترته الصوفيـه المغلقة وعيـونه الـداكنة وشعره الأسود المنكـوش. كانـا يعبران الكـوبري ويتّجهـان يساراً إلى شـارع الجبلايـة حيث البنايـات الكبيرة الهـادئـة في النـاحيـة اليمنى، والمصابيح القليلة بين الأغصان المتشابكة عـلى طول الشـاطئ، والنور الخفيف على تراب الرصيف الطويـل الخالي، حتّى يصـلا إلى كوبـري الزمالـك، ينحرفـان إلى مدخله الحجـري المنحوت، بلونـه الرمـادي الغـامق، وتيجان الحـديد القـديم الأخضر، الملتمّة في قمّتـه، حـول المصباح القمري المترب. كانا يعبران الكوبري وقد بدا النهـر كامـلاً، ويتّجهان يميناً حتّى ميـدان الكيت كات. يفعـلان ذلك عنـدما تكـون الدنيا صيفاً ويفعلانه عندمـا تكون شتـاءً، ليال طـويلة وحكايـات لا أول لها ولا آخر. وفجأة يختلّ ذلك الشيء الذي كان. يحتضر الكلام ثمّ يمـوت بينهما. يلتقيـان وكأنّ أحـدهما لم يـرَ الآخـر من قبـل. العم عمران يتفرّج على الدومينو، يجلس مع الشلّة صامتاً، أو يتحـدّث مع الأسـطى قدري الإنجليـزي دون أن يدع يـوسف النجّـار يسمـع مـا يقول. وعندما يُغلق المقهى، كان يصعد إلى البرج ويسهر في سطحـه العالي، أو يقضي بقية اللّيل مع العم مجاهد الذي لا ينام. أمّا يوسف النجّـار فإنّـه كان يجلس مـع سالم فـرج حنفي مدرّس الـتربيـة الفنيّـة والدكتور سعيد والدكتور ظافر وربيع بائع أدوات الصيـد ويحيى نجم

المحامي والباشمهندس أحمد والأمير عوض الله. ولكنّه كثيراً ما يأتي متأخراً، يشتري جريدة الجمهورية التي تباع ليلاً ويجلس عند مدخل المقهى ليقرأها ويشرب فنجاناً من القهوة، وينصرف. تمرّ ليال طويلة أخرى، ثمَّ يعود الكلام مسموعاً، وحده، قد يكون في موافقة من أحدهما على رأي يقوله الآخر، أو ابتسامة، أو غضبة مشتركة على موقف من المواقف. وهكذا تعود جولتهما اللّيلة، كأنّهما لم يتوقّفا هذه الشهور الطويلة. لم يتوقّفا أبداً. كأنّهما فقط يواصلان ما انقطع، أو ما لم ينقطع. وتصحو الحكايات القديمة، نفس الحكايات التي لا أول لها ولا آخر.

لم يكن يوسف النجّار يخشى أن تكون هذه بداية لخصام جديد، فلقد كان هذا الخصام لا يحدث إلاّ وفق رغبة مشتركة بينهما. لم يكن بوسع أحدهما أن يفعل ذلك منفرداً. من أراد القطيعة عليه أن يدفع الآخر. هكذا تعلّم يوسف النجّار وهكذا أدرك العمّ عمران. كان يريد أن يسمع كلامه عن العم مجاهد ورأيه فيما جرى. أيّ كلام الآن سوف يكفي. سأله إنّ كان يودّ أن يشرب شاياً ولكنّ العمّ عمران رمقه بجانب عينه وهو يهزّ رأسه رافضاً. ونظر يوسف النجّار إلى أسفل ورأى أطراف سرواله الخارجي وقد تلوّثت بالأوحال. وعندما كان يفعل لاحظ أنَّ العمّ عمران التفت إليه غاضباً ثمَّ اعتدل. وفكّر أنّ يمسح الحذاء ولكن جمال كان يتفرّج وهو يضع ساقاً على ساق تحت جلبابه الطويل واستغرق في متابعة اللّعب دون أن ينظر إلى هنا أو هناك. وفجأة قام المعلّم رمضان ثائراً وشتم لاعبي الدومينو وخرج وهو يضرب البرتقال الذي وقع من حجره بقدميه

ويخفيه تحت المقاعد. وابتسم كلّ منهما على ما حدث. وطلب يوسف النجّار من عبد الله أن يحضر كوباً من الشاي للعمّ عمران وفنجاناً من القهوة لنفسه. ولكنّ العمّ عمران طلب من عبد الله أن لا يحضر شيئاً. وقال يوسف: «بدل ما أشرب لوحدي».

«أنا لسّه شارب شاي».

«طيّب خد أي حاجة».

وصاح عبد الله: «بن تقيل ع الريحة وحلبة حصى لعمّك عمران».

وتركهما وعاد مرّة أخرى إلى قاسم أفندي الذي كان يجلس على مقعده والجريدة مفتوحة بين يديه. وقال يوسف إنّه حزن كثيراً عندما عرف بما حدث للعمّ مجاهد. ولم يقل العمّ عمران شيئاً. وقال إنّه بعد أن يشرب القهوة سوف يقوم وينزل إلى البلد لأنّه مرتبط بموعد، ولكنّه لن يتأخر. ولامس المفتاح في جيب سترته. وفكر يوسف في فاطمة.

* * *

في مساء أحد الأيام سألته أمّه إن كان يعرف البنت فاطمة الصغيرة التي تسكن إلى جوارهم. وعندما قال لها إنّه يعرفها أخبرته أنّها تزوّجت ولداً عنده عربة، وأنّه أعطاهم مبلغاً من المال. وقالت له إنّ البنت مازالت تقيم في نفس البيت مع أمّها الست أمّ سيد وشقيقتيها فتحيّة وسيِّدة. كما أخبرته أنّ الولد يأتي لزيارتهم ويترك عربته في الوسعاية، وأنّ أمّ سيّد تظلّ طول الوقت وهي تزعق في الأولاد الذين

يلتمّون حول العربة ويلعبون عليها، وقلّدت له صوتها وهي تطلب منهم أن يبتعدوا عن عربة زوج ابنتها. وعندما كان يجلس على الكنبة الموجودة بالصالة يقرأ ويشرب الشاي وأمّه تجلس على الفروة البيضاء المفروشة على الكليم وأمامها الوابور والبرّاد والأكواب، رأى العربة، وسمع أمّ سيّد ولاحظ أنّ صوتها في كلّ مرّة كان كما أخبرته أمّه تماماً. ثمّ قالت له إنّ الولد الذي تزوّج فاطمة قد تركها وعاد إلى بلاده. كان يعرف ذلك. وقد فكّر أنّ الأمر يبدو مختلفاً الآن لأنّها لم تعد بنتاً بل أصبحت امرأة، وأنّه عندما يراها وحدها في المرّة القادمة سوف يتركها تحدّثه ويأخذها بعد ذلك إلى أي مكان. ولكنّه بعد حريق أخيها سيّد لم يعد يفكّر في ذلك واكتفى بأنّ يردّ على ابتسامتها عندما يلقاها. بدأت فاطمة تأتي إلى البيت لكي يكتب الخطابات إلى زوجها. في المرّة الأولى سألته عن الكتب التي على الجدران. وعندما كلّمها وهو يعبث في أدراج المكتب هزّت رأسها ورأت نفسها في المرآة الثقيلة وغمزت له بعينها وانصرفت. في المرّة الثانية سألته عن معنى الصورة المعلّقة إلى جوار النافذة وعادت تسأله عن الكتب وتقول إنّها تريد أن تعرف إنّ كان يشتريها من أجل العمل الذي يعمله أم يشتريها لأنّه يحب ذلك. وعندما أخبرها أنّه يشتريها لأنّه يحب ذلك ظهر عليها السرور وانحنت على كومة الكتب في جانب المكتب، بجلبابها البيتي وثدييها الصغيرين وسألته في صوت هامس: «يعني أنت غاوي؟» وابتسم يوسف النجّار وعادت تسأله إنّ كان يذهب إلى السينما في بعض الأيام، وقال لها إنّه يذهب قليلاً ويكتفي بالأفلام التي يراها في النادي، وقالت هي في نفس الصوت: «أفرض حد

أدّاك تـذكرتـين سينما هـدية، ليـك أنت وواحد صـاحبك أو واحـدة صاحبتك، تقبلهم والّا تكسفه؟».

وعندما قـال لها إنّـه لا داعي للغرامـة قالت: «يبقى يـوم الخميس بقى علشان ده يوم إجازتك».

وتركته وانصرفت.

كان يوسف النجّار يقرأ حين رآها تأتي مرّة أخـرى بحجّة استعـارة مظروف فارغ، ووقفت أمامه ومدّت يدهـا ذات الأساور الـذهبية إلى جيب جلبـابها وأخـرجت طرف التـذكرتـينّ المطويتـينّ وسـألتـه كيف يلتقيـان، وقـال لهـا ضـاحكـاً: «الله، مش أنت قلت أنـا وواحــد صاحبي».

وضحكت معه وهي تداري التـذاكر وتقـول «نعم، هو صـاحبك أحسن منّي والّا إيه؟».

وحينئـذ ترك الكتـاب من يمينه وأخـبرهـا أنّـه مـرتبط بمـوعـد يـوم الخميس في وسط البلد، وطلب منها أن تعطيه تذكـرة واحدة وسـوف يراها هناك بعد أن ينتهي من مـوعده. أفهمهـا أنّ التذاكـر لها أرقـام مسلسلة وأنّها سـوف تجده عـلى المقعد المجـاور لهـا. وقـالت هي إنّها تعرف أنّ التذاكر مسلسلة وتردّدت ثمّ وافقت وقالت: «زي بعضه».

وبعـد أن خرجت نـادته أمّـه لكي يأخـذ كوب الشـاي وخرج إلى الصـالة وشرب الشـاي ثمّ ارتدى مـلابسه وذهب إلى المقهى. جلس مـع مجيد وحكى لـه ما فعلتـه فاطمـة وقال إنّـه لا يعرف مـاذا يفعـل فطلب منه أن يذهب في موعده ولكنّ يوسف أخبره أنّها شقيّة مـع أنّها

صغيرة. وحدّثه عن أهلها وأخلاقها وأنّه لا يعرف ماذا تريده وقال مجيد إنّها تجربة ظريفة وخصوصاً أنّها بنت بلد، وأنّ هذا النوع من التجارب غير متوفّر لمن كانوا مثلنا، وأنّ بوسعه أنّ يتركها عندما يريد، ووعده بأنّ يعطيه مفتاح شقّته في أي وقت يطلبه، وذهب يوسف والتقيا خارج السينما. كان يبحث عنها بعينيه عندما لمست مرفقه من الخلف بأطراف أصابعها. وصعدا إلى البلكون واقتربت منه وأخبرها أنّه لم يشاهد فيلماً عربياً منذ عشر سنوات على الأقل. ومع أنّه كان ينظر إلى الشاشة طلبت منه أن يكون طبيعياً ولا يلتفت إلى أيّ أحد من الناس. وعندما خلعت البطلة ملابسها واستدارت ظهرت علامة تحت ظهرها العاري، مالت عليه بكتفها وهي تهمس: «أيه العلامة دي؟».

ونظرت إليه بجانب عينها اللوزيّة فابتسم. والتصقت به أكثر وهي تنظر إلى حجرها: «الجونلة دي زي قلّتها، مش كنت لبست بنطلون أحسن؟ على الأقل كان دفّاني».

ونظر هو ورأى ساقيها العاريتين حتّى فخذيها، وقال لها: «لكن كده أحلى».

فكتمت ضحكتها ثمّ كشّرت وقالت إنّها مريضة: «والنعمة جدّ. تصدّق لمّا رحت للدكتور قال إنّ أنا عيّانة علشان بعيدة عن جوزي وحاجات زي كده. معقولة؟».

وهزّ يوسف النجّار رأسه موافقاً ولكنّه دهش من كلامها. وقبل أن ينتهي الفيلم بقليل همست له أن يقوما. وفي الطريق وضعت يدها في

يده. وأخبرها عن صديقه الذي وعده أن يعطيه مفتاح شقّته لكي يستطيعا أن يتكلّما وحدهما بعيداً عن دوشة الناس حتّى ركبا عربة ونزلا في ميدان الكيت كات وطلب منها أن تسبقه لأنّه سوف يمرّ على المقهى. لم يكن يريد أن يراهما أحد. وأطرقت هي برأسها وقد اتسعت ابتسامتها.

وفي يوم الخميس التالي، حدَّثته عن الحجرة الأرضية المغلقة.

* * *

وقام سليمان الصغير. راح يبحث تحت المقاعد عن البرتقالات التي وقعت من حجر المعلّم رمضان حتّى وجدها. وضعها على سطح الثلّاجة الجافّة وشرب كوباً من الماء. ثمَّ عاد إلى مكانه.

(٨)

من مكانه على حافّة الشاطئ، عبر الطريق الذي تقطعه العربات والناس، رأى اللافتة الكبيرة المعلّقة والمصابيح ذات الطرابيش المعدنية المقلوبة التي تضيئها: (شركة مخازن حدايد) في ناحية، و(صلِّ على النبي) في الناحية الأخرى. والجدران الخارجية المطلية باللون الأزرق والأصفر، ومدخل المكتب بواجهته الزجاجية المغلقة، والميزان القبّاني، وبقية المداخل الطويلة التي تكشف فتحاتها العميقة عن أسياخ الحديد المبرومة. واستدار الأمير عوض الله وراح يتطلّع عبر النهر، وتحرّك بضع خطوات جانبية حتّى قدر أنّ ظهره أصبح الآن يقابل المدخل الزجاجي المغلق ومال برأسه إلى الناحية اليسرى، ونظر بجانب عينه إلى هناك.

كان المعلّم عطية يعطيه ظهره وهو يجلس في الناحية اليمنى، والمعلّم (صبحي) يعطيه ظهره وهو يجلس في الناحية الأخرى، وبينهما، طالعه وجه الحاج خليل وهو يجلس وراء مكتبه، عدّة التليفون، والكرافتة، ومقدِّمة رأسه الخالية من الشعر. وفي الركن الداخلي من المكتب، رأى جانب وجه الحاج حنفي اللّبان وهو يتطلّع برأسه الكبير والكوفية العريضة تغطّي رقبته وجانب كتفه القريب. اعتدل الأمير ونظر جيِّداً. لم يعرف من الذي يتكلّم ومن الذي يسمع. كان الرصيف مزدحماً بالصبيان الصغار أمام فتحات الورش التي يعملون بها، بثيابهم المشحَّمة، ووجوههم الملوَّثة المسودّة، يلحِمون بالكهرباء فتتطاير شرارات الضوء أو يفكّون عجلات الكاوتش أو يرقدون على ظهورهم تحت العربات المركونة. كان أصغرهم قد تسلّق رفرف سيّارة النقل وجلس عليه وقد أمسك بكشّاف ليضيء المكان للأسطى الذي اختفى نصفه تحت غطاء الموتور المكشوف. واستغرب الأمير عوض الله من نفسه لأنّه جاء لكي يعرف ما تمَّ في الموضوع، وكأنّه جاء ليجلس معهم، مع أنّه لا يملك إلاّ أنّ يقف وينظر من بعيد. لقد أدرك الآن أنَّ وقفته هنا دون فائدة وأنّه لن يعرف شيئاً. ولكن المؤكّد أنَّ هذه الجلسة بين المعلّمين سوف تؤدِّي إلى الاتفاق الأخير. وقال الأمير إنَّ الاتفاق الأخير لن يؤدّي إلاّ إلى ضياع المقهى لأن صاحب المقهى الآن وبحكم القانون هو المعلّم صبحي الذي اشترى البيت. والمعلّم كبر. في طريقه لكي يكون من دور الحاج خليل نفسه. قال الأمير إنّه يتقدَّم وينتشر مثل السرطان داخل الحارة. يشتري البيوت القديمة ثمَّ يهدمها. أمّا الحاج خليل فهو

أكبرهم ويقضي مشاويره داخل إمبابة في عربة مرسيدس وكأنّه محدث نعمة. المعلّم عطيّة صغير بالنسبة لهما لأنّ حدوده أصبحت معروفة، قطعة الأرض الكبيرة التي اشتراها ناحية المنيرة والدورين على أربع شقق مع أنّ الأساس ممكن يتحمّل عشرة أدوار، والمقهى الجديد الذي يعدّه تحت العمارة على شارع الوحدة. ما الذي سوف يصل إليه بعد ذلك؟ سوف يخسر الزبابين. حتّى لو كسب غيرهم. غايته يستكمل بناء العمارة. أمّا الحاج خليل والمعلّم صبحي فلا يعلم غايتهما إلاّ الله. على المعلّم عطيّة إذن أن يترك المقهى وخصوصاً بعد مسألة السكّين. يكفيه ما أخذه طول الشهور الماضية. وتراجع الأمير إلى الخلف وجلس على سور الشاطئ الحجري القصير، وأشعل سيجارة وقال: «الله يخرب بيتك يا شيخ حسني».

(من عواقب ركوب الماء)

تحسّس الشيخ حسني حافّة القارب، وعرّى ذراعه ومال قليلاً وراح يلعب في الماء ويرشّه ويقول: «الميّة باردة قوي يا شيخ جنيد».

وجفّف يده مسروراً وأشعل سيجارة، وتساءل بينه وبين نفسه أيّ شيء آخر لم يركبه؟ لقد ركب الدرّاجة، والموتوسيكل، وها هو يستأجر فلوكة على حساب الشيخ جنيد ويركبها على سطح الماء. وتذكّر يوم استأجر الدرّاجة وترك طاقيته رهناً عند عبد النبي العجلاتي، وركبها في شارع البحر ثمّ انحرف يساراً إلى شارع الجرّاح المنحدر وتوقّف وركنها في حوش صديقه حسين عبد الشافي وصعد ودقّ على الباب وسلّم على أمّ حسين وإخوته ثمّ اعتذر عن شرب

الشاي وأخبرهم أنّه مضطر للنـزول. وعندما سأله حسين عن سبب استعجاله قال إنّه ترك الدرّاجة في الحوش ويريد أنّ يعيدها إلى عبد النّبي العجلاتي. وحينئذٍ تجمّع أهل البيت والشارع لكي يروا الشيخ حسني الأعمى ابن الحاج محمّد موسى الذي جاء من عند الكيت كات راكباً درّاجة، وكيف أنّه سوف يعود بها. وتذكّر الشيخ حسني كيف أنّه أخرجها من حوش البيت ثمّ وجهها إلى الناحية الأخرى وجرى بها قليلاً ثمّ قفز عليها وانطلق صاعداً في شارع الجرّاح بين دهشة أبناء الجزيرة الذين وقفوا يتحدّثون حول هذاالموضوع دون أن يلاحظوا أنّ الشيخ بدلاً من أن ينحرف في نهاية شارع الجرّاح إلى الناحية اليمنى ويسوق في شارع البحر لكي يصل إلى ميدان الكيت كات نسي وظلّ يسوق بسرعة حتّى عبر شارع البحر بالعرض ووصل إلى حافّة الشاطئ واندفع من عليها ووقع في البحر وهو مايزال يركب على الدرّاجة.

وابتسم الشيخ حسني عندما تذكّر نفسه وهو يمسك بها ويجلس حتّى وسطه في قلب الماء، وكيف أنّه راح يستغيث عمياني وينادي على المارّة. ولأن الشمس كانت قد غربت فلقد ظنّوه النـدّاهة التي كانت تأخذ كلّ يوم واحداً أو اثنين من أبناء إمبابة. ولم يمرّ وقت طويل حتّى كانت الدنيا كلّها قد انقلبت إلى شارع البحر، وراحوا يرجمونه من بعيد بالحجارة دون أن يروه، وكان هو قد بحّ صوته واستولى عليه الرعب عندما بدأ الطوب يضرب الماء على مقربة من جسده ويرشّه عالياً ليسقط على رأسه الحليق، وأخذت الدموع تطفر من عينيه الخاليتين حتّى التقطت أذناه الكبيرتان صوت الجاويش عبد الحميد من

بين الأصوات التّي تزعق على طول الشاطئ: «يا شاويش عبد الحميد. يا شاويش عبد الحميد». وسمع الجاويش عبد الحميد وهو يقول من بعيد: «مين؟».

«أنا الشيخ حسني»
«الشيخ حسني مين؟»
«الشيخ حسني يا أخي»
«وبتعمل أيه عندك؟»
«أبداً. أصلي كنت راكب عجلة ووقعت»
«عجلة؟ بتقول كنت راكب عجلة؟»
آه والله. حتّى اسمع كده»
وراح يضرب جرس الدراجة لكي يصدّقوه.

وعاد الشيخ للابتسام عندما تذكّر كيف أنّه سمع الحاج محمود الشامي وهو يحرِّض الجاويش عبد الحميد على الانصراف ويقول: «يا عمّ يالاّ بينا من هنا. اعمل معروف».

وصاح: «أنا الشيخ حسني يا عمّ الحاج، حتّى اسأل رمضان ابنك وهو يقولك. الشيخ حسني ابن الحاج محمّد موسى».

حينئذ أشعلوا الجرائد ورأوا أنّه الشيخ حسني فعلاً يجلس حتّى وسطه في قلب الماء، ويده قابضة على الدراجة.

أمّا الموتوسيكل فإنّه لم يركبه إلاّ عندما صار رجلاً. كان يستأجره ويأخذ حسين عبد الشافي وراءه لكي ينبهه. وكان يدير المانفلة وحده ويمسك الدبرياج وينقل على الأوّل ويفتح البنزين وينطلق في شارع

مراد وهو يضرب الكلاكس للتنبيه والناس تجري منه في كلّ اتجاه. لم يكفّ عن ذلك إلاّ عندما دخل بالموتوسيكل من واجهة أجزخانة الإمبابي وهو يكسر كلّ شيْ أمامه حتّى وصل إلى الدكتور عبد التوّاب الذي يشرب الشاي وراء الستارة وخبطه في جنبه الأيمن ثمّ انقلب هو والموتوسيكل على جنبه الأيسر ولحقه حسين عبد الشافي الذي كان قد تركه وقفز عند مدخل الأجزخانة. وقال الشيخ حسني بصوت مسموع: «الله يرحمك يا حسين».

«حسين مين؟»

«حسين عبد الشافي».

«.........»

«إيه، ما تعرفوش؟»

«مش واخد بالي يا شيخ حسني».

«يا مولانا، فيه حدّ في الدنيا ما يعرفش حسين عبد الشافي؟ كابتن مصر يا أخي».

«يا سلام؟»

«طبعاً. كابتن المنتخب القومي المصري في دورة ميونخ سنة ستّة وثلاثين».

«اللّي قابلناه في القهوة امبارح؟»

«قهوة أيه؟ ده مات. لقيوه غرقان».

وقال الشيخ جنيد وهو يتشبّث بيده في حافّة الفلوكة:

«يا ساتر يا ربّ. غرقان إزاي؟»

وقال الشيخ حسني إنّه غرق كما يغرق الناس. ثمّ أضاف أنّه لم

يغرق ولكنَّه انتحر، لأنَّ حسين عبد الشافي يجيد العوم: «أصل إمبابة كلّها تعرف تعوم».

«غرّق نفسه يعني؟»

«آه».

وقـال إنَّه ظـلَّ في المشرحة فـترة طويلة حتّى تـرجموا المجلّة وعـرفوا اسمه: «أصل حسين كان لا بيشيل بطاقـة ولا فلوس ولا حاجـة أبداً زي حالاتي كده، لكن كان معاه ديمـاً ورقة من مجلة صـورته منشـورة فيهـا بالألمـاني وهو بيسلّم عـلى هتلر في افتتاح الـدورة. حسين واقف لابس هدوم الكورة، وهتلر واقف لابس البـدلة الميري والعصابـة أمّ دماغ دهب تحت باطه الشمال، وبيسلّم عليه بايده اليمين، والكراسي وراهم مليانة بالألمان».

وتمايل بجسده قليلاً ليؤرجح القارب على صفحة النهر وقال الشيخ جنيد: «كفاية كده بقى، احنا بعدنا قوي».

«لا أبداً، ده الشطّ هناك أهه، المرّة الجاية بإذن واحد أحـد أخدك ونطلع من هنا عـلى القناطـر الخيريـة على طـول. لكن أنا بـاستغرب إزاي عمرك ما سمعت عن حسين عبد الشافي؟».

وقال إنَّه كـان صاحب أخفّ دم في الـدنيا كلّهـا. قال إنَّ حسـين عنـدما مـات والده لم يكن يملك شيئاً، ولا الستر، وإنَّـه احتار مـاذا يفعـل. لم يكن يريـد أن يفضـح نفسـه وهـو الكـابتن المعـروف عـلى مستوى العالم، ويستـدين من أجل دفن والـده، لذلـك أخرج غيـاراً نظيفاً، ونزل بوالده إلى البحر، وخلع ثيـابه وغـطّسه في المـاء الطاهـر

ثلاث مرّات وتلا الشهادتين، ثمّ ألبسه الغيار النظيف وصعد به إلى الشاطئ وأخذه أمامه على الدرّاجة وسنده بين يديه كأنّه لم يمت وذهب به من هنا حتّى سيدي عمر ودفنه هناك بمعرفة عبد الخالق الحانوتي.

ولقد سمع الشيخ جنيد هذا الكلام وهو في جلسته الثابتة ووجهه الأبيض ولحيته الكبيرة الشقراء. كان ساهماً وقد ركبته الدهشة البالغة. لم يكن الشيخ حسني يراه ولكنّه شعر بذلك وازداد سروره وهو يقول إنّ حسين في آخر أيامه كان يسكن حجرة في حارة (حوا). حجرة كبيرة وفيها شرخ طويل بطول الجدار، شرخ حقيقي، وقال إنّ حسين عندما كان يجلس في الحجرة كان يرى السماء من هذا الشرخ: «زي ما أنا وأنت شايفنها كده دلوقت». وقال إنّه كان يجلس وحيداً في أحد الأيام وتصادف أنّ الدنيا زلزلت والحجرة اهتزّت بشدّة، فاعتدل الجدار واختفى الشرخ، أصبح مسدوداً، وعندئذ رفع حسين يديه إلى السماء وقال: «يا رب. كمان زلزال يبيّضها».

وانفجر الشيخان يضحكان. وعندما طلب الشيخ جنيد من الله أنّ يجعله خيراً، توقّف الشيخ حسني عن الضحك وتذكّر أنّه يحمل في جيبه الداخلي ورقة المجلّة التي بها صورته وهو يصافح حضرة صاحب الجلالة الملك لأنّه كان أول دفعته، وهو لا يحمل شيئاً آخر غير هذه الورقة وذلك مثل حسين عبد الشافي تماماً، وشعر بالقلق من هذه المصادفة الغريبة، وقال بصوت خافت:

«مساء الخير يا واد يا زين».

ولكن زين لم يردّ.

فقال بصوت أعلى قليلاً: «الله. واد يا زين؟»

ولكنّه لم يرد. وقال الشيخ جنيد: «احنا بعدنا والاّ إيه؟»

فقال الشيخ حسني: «يا راجل الشطّ قدامنا هناك أهه. أنا بس شايف الواد زين نايم وعاوز أصحيه».

وشخط: «واد يا زين».

ولكنَّ زين، أيضاً، لم يرد.

وشمّر الشيخ حسني كمّه ومال قليلاً، وبكل هدوء مدّ العصا في الماء لكي يقيس عمقه، ولكنّها لم تصل إلى شيء فأخرجها، ومدّ يده الأخرى ناحية مقدّمة المجداف ثمَّ سحبها على الفور وأيقن أنّه غارق لا محالة وأنّهم سوف يعرفون جثّته من ورقة المجّلة، وسكت عن الحركة تماماً، وفجأة صرخ بكلّ ما يملك من قوة: «غريق. غريق»

وهبّ الشيخ جنيد واقفاً وقد شحب وجهه الطاهر، وغادر القارب مسرعاً وهو يلمّ الجبّة على جسده، وغطس في ماء البحر.

(٩)

في الترولّي باس كان يقف وراء مقعد السائق. وعندما اقترب من محطّة عمر الخيام جاءت الفتاة التي كانت بالداخل وأمسكت بالعمود الحديدي المنتصب بين درجة السلّم والسقف المعدني العالي. واقترب الرجل الذي يقف إلى يساره وقبض بيده هو الآخر على نفس العمود الممتدّ. كانت المسافة بين يده الكبيرة السمراء ويدها الصغيرة البيضاء مسافة إصبع أو إصبعين.. وقبل أنّ يتوقّف الترولّي باس نظر يوسف النجّار ورأى الإصبع السمراء وهي تنفرج قليلاً، واليد الكبيرة وهي

تنـزلق رويـداً، ثمَّ الإصبـع وهي تلتفّ حـول إبهـام اليـد الصغـيرة البيضاء، وشعر يـوسف بهذه اليـد وهي توشـك أنّ ترتـدّ إلى أسفل، وأحسّ بهـا وهي تتـردّد، ثمَّ رآهـا وهي تـظلّ في مكـانها، والـوجـه البيضاوي وهو يميل حائراً إلى الوجه الأسمر الجامد، والنظرة السريعة المتـأمّلة. وعندمـا توقّف الـترولّي وانفتـح الباب، هبَّ الهـواء وشعـر يوسف بالبرودة ونزل الاثنان. كان بعض النـاس يقفون عـلى رصيف المحطّة المبتل. أسرعت الفتاة أمامهم، ودار هو من خلفهم. وعندمـا تجـاوزتهم قليلاً تمهّلت. وكـان هـو قـد لحق بهـا. اقـترب منهـا تحت الأشجار وسار إلى جوارها. . وراح الترولّي باس يأخذه ويبتعد.

وقال إنَّ هذه البنت أيضاً فيها شبـه من فاطمـة. ولاحظ أنَّه صـار يجد في كل امرأة شيئاً منهـا. أي شيء. وتذكّـرها في الحجـرة الأرضية المغلقة تقول بصوتها المبحـوح كصوت الغـلام: «لازم ماعجبتكش». تذكّرها ترتدي ثيابهـا غاضبـة، ثمَّ تضحك فجـأة وتجلس على ركبتيـه تجفّف العـرق عن وجهـه بـطرف قميصهـا، ويـرى وجههـا القـريب احمرَّت سمرته في ضوء الشمعة الصغيرة وكبر سواد عينيهـا وبلّلهما مـا يشبـه الدمـع الخفيف، والمشجب الغـريب العـاري من كـلّ ثيـاب، والصورة العائلية الباهتة داخل الإطار المطعَّم بالأصداف، والـدولاب الخشبي في لون البن المحروق والمـرآة البيضاويـة المشروخة، وهمسهـا المبحـوح أن لا يهتم: «وأيـه يعني، هـو لازم من الحـاجـات دي؟» وتقسم له أنَّها تحبه وأنَّ النوم لا يأتيها إلاّ عندما تخرج في اللّيـل وترى النور في نافذته وتعرف أنَّه عاد. لا تريد أكثر. رآها واقفة وقـد فترت عينـاها كمن تهيّـأ للنوم وقـالت: «تصبح عـلى خير». وعنـدمـا غـادر

الحجرة الأرضية المغلقة وخرج إلى الطريق المظلم البارد عاودته الرغبة.

لا بدّ أنّ ينام معها ولو لمرّة واحدة.

مرّة واحدة فقط ثمّ يتركها.

لو تركها قبل ذلك، يخاف يوسف أن تفضحه فاطمة.

ونزل في ميدان عرابي، واتجه إلى شارع ٢٦ يوليو لكي يلتقي بها عند محطّة دار القضاء العالي. وتوقف عند واجهة المكتبة القوميّة وأخذ يطالع أغلفة الكتب المعروضة، وخيّل له أنّ الدنيا ردّدت ما يشبه الصدى الخفيف، وانحرف مع ناصية المكتبة وتوقّف على الرصيف عند القفص الحديدي المطلي باللون الأزرق الذي حبست فيه أنواع الطيور والقطط السيامي. لم يمرّ من هنا إلاّ وتفرّج عليها. يتابع ما يختفي منها وما يستجد. يتأمّلها من فتحات أدوار الشبك الحديدي المستديرة. القطط السيامي في الدور الأرضي وقد فرش لها القش النظيف الأصفر، وفوقها، الأرانب الصغيرة البيضاء التي تشبه فئران التجارب، ثمّ أزواج الحمام المالطي والقطاوي الكبير في طابق واحد، وحمام الزاجل بطوق الريش القصير المنفوش حول رقبته، بصدره المتعاجب، والحمام الصغير في حجم اليمام الأبيض الذي لا يكفّ عن توحيد الله، ذبحه حرام، هكذا أخبره زميله محمّد صيام الذي يهوى تربيته ويفهم فيه، وتنبّه إلى صوت الصدى، كأنّه الدوي البعيد، كان موقعاً، أيمكن أن تكون؟ ولكن يوسف النجّار استبعد هذا ومشى حتّى فتحة السور ليعبر ٢٦ يوليو، ورأى فاطمة وهي تقف على جانب المحطّة. وعندما واجه مدخل شارع طلعت حرب تجمّع الصوت

المدوي واضحاً بين جدران البنايات الكبيرة العالية. وقف في مدخل الشارع واستطاع أن يراه مسدوداً من بعيد. نعم. يناير. إنَّها مظاهرة. وأوشك أن يشير إلى فاطمة كي تأتي وتتفرّج ولكنّ الناس الذين انتبهوا تجمّعوا وباعدوا بينهما. ظلَّ واقفاً في مكانه حتّى اقتربت صفوفها الأولى، وحينئذ تراجع حتّى مدخل المكتبة القومية ووقف أمامها على ماسورة السور الحديدي وأمسك في قفص الطيور العالي حتّى لا يقع. كانت هناك فتاة صغيرة سمراء محمولة على الأعناق تعصب رأسها بإيشارب وتهتف ضدّ الحكومة وميمي شكيب والأسعار. وعندما تبينً وجهها راح يلوّح لها بيده الخالية ويرى الآلاف الهادرة من الناس الذين انشقوا إلى نهرين اتجه أحدهما إلى ميدان عرابي في طريقه إلى ميدان رمسيس واتجه الآخر إلى العتبة الخضراء. ثنى ركبتيه وقفز إلى الأرض وراح يتبعهم. رأى صديقه سامي وهو يسير وقد شبك يديه وراء ظهره. رافقه حتّى تقاطع ٢٦ يوليو مع محمّد فريد ووقف في مكانه صامتاً، ظلَّ يسمع الهتافات البعيدة ثمَّ استدار عائداً، ونظر ناحية المحطّة وخيل له أنَّ فاطمة مازالت واقفة ولكنَّه لم يكن متأكّداً. اتجه يميناً إلى ميدان عرابي حتّى شارع الألفي. كان المدخل الخشبي لبار ريجال مغلقاً. دفعه بيده، ودخل وجلس إلى منضدة خالية. طلب يوسف زجاجة من الروم، وراح يشرب، ويدخّن.

(الولد والمصباح)

عندما انتهى الأمير عوض الله من سيجارته، قام واقفاً من على السور الحجري القصير، وابتعد قليلاً على حافة الشاطئ في اتجاه

كوبري إمبابة بأقواسه الحديديّة الكبيرة، وعبر الطريق وسار على الرصيف عائداً مرّة أخرى لأنّه أراد أنّ يمرّ على مدخل المكتب ويلقي نظرة قريبة على المعلّمين الأربعة الذين كانوا مايزالون يجلسون خلف اللّوح الزجاجي العريض، وعندما اقترب من الورشة المجاورة قفز الصبي الصغير الذي كان يعتلي رفرف سيارة النقل واتّجه المصباح الكبير المفتوح إلى وجهه وبهره الضوء وانعكس في عينيه من زجاج المدخل المُقْفَل. هكذا عبره دون أن يرى شيئاً. وظلّ يتقدّم بطيئاً وهو يغلق عينيه ويفتحهما.

لم تكن المصابيح الكهربائية قد أضيئت بعد. وكانت أغصان الأشجار قد ازدادت كثافة وقتامة. وفي ذلك اللّيل المقبل، استدار الأمير عوض الله ورأى نيران المشاعل القليلة الحمراء التي أوقدها الباعة، تبدو واضحة فوق العربات الخشبية المتباعدة على الشاطئ. وعندما اقترب من محطّة الترولّلي باس رأى يوسف النجّار واقفاً هناك فأسرع ناحيته. واعتذر يوسف بأنّه لم يستطع أنّ ينتظره أكثر من ذلك لأنّه مرتبط بموعد كما أخبره. وقال الأمير إنّه اضطر للتأخّر قليلاً وطلب منه أن يعود مبكّراً لأنّ موضوع المقهى يكاد أن يكون انتهى، وقال إنّه سوف يذهب إلى هناك ينتظر سالم فرج حنفي والدكتور ظافر وسعيد حامد وطلبة ويحيى نجم لكي يخبرهم بذلك لأنّ علينا أن نبحث من الآن عن مكان آخر نلتقي فيه. وقال يوسف إنّه سوف يعمل جهده لكي يعود مبكراً. وركب الترولّي وأشار له مودّعاً من وراء مقعد السائق، وهزّ الأمير عوض الله رأسه وظلّ واقفاً على المحطّة. كان مكروباً وقال في نفسه إنّه لا فائدة، ويجب عليه أن يعتاد

ذلـك من الآن، لأنَّه سـوف يحدث، إنَّ لم يكن اليـوم فغداً، ومـادام متأكداً من ذلك فإنَّ عليـه أنَّ ينظر إلى الأمـر كأيّ واحـد من الشلَّة.
إنَّهم لا يهتمون بالمقهى إلاّ لأنَّـه مكان يجلسـون فيه، ولكنَّـه على أيّـة حال سوف يخبرهم ويرى تأثير ذلـك عليهم. وتمنّى أن يأتي سـالم فرج حنفي لأنَّه سوف يهتمّ أكثر منهم بهذا المـوضوع، خصـوصاً إذا ذكَّـره بأيَّام كتَّاب الشيخ محمّد قطب عندما كـانا يخـرجان ويـأتيان معـاً وكلّ واحـد يحمل كيس القـماش بداخله لـوح الارتواز ويجلسـان إلى جـوار والده الحاجِ عوض الله ويشرِبان البندق وينصرفان. نعم. إنَّ سالم لن يكـون حتّى بحاجـة لأن يذكِّـره فهو يـأتي إلى المقهى منذ هـذه الأيـام البعيدة لأنَّ علاقتهما لم تنقطع سواء في مدرسة عبد الحميـد شمشم أو مدرسة إمبابة الإسماعيلية الابتدائية، وتمنّى أن يذهب إلى المقهى فيجد سالم هناك. وازداد إحساسه بالأسف لأنَّه لم يجـد من الشلَّة إلاّ يوسف النجّار ليخبره، فهو يبدو مثل الغريب في إمبـابة مـع أنَّه من أبنـائها.
وجلس الأمـير عوض الله عنـد المـدخـل الخـارجي للمقهى وفكّـر أنَّ يوسف كان زميلهم هو الآخر في كتَّاب الشيخ محمّد قطب وفي مدرسة شمشم وإمبابة الإسماعيلية. وكان يلعب معهم على بـالات التبن التي تأكلها خيول السباق وراء سيـدي حسن كما كـان ضمن شلَّة الشجرة التي تتفرّج على الكيت كات وكان يصطاد معهم من البحر ويسبح فيه ويعبره هو وحمـامة حتّى الـزمالـك ويشيران إليهم عـرايا من الشـاطئ الآخـر ثمَّ يعومـان ويتعلّقان بـالمراكب التي تحمـل القلل من الصعيـد ويعـودان مرّة أخـرى. ومضت سنوات لم يعـد يراه فيهـا إلاّ مصادفـة ولكنَّهما لم يلتقيا أبداً دون أن يسلّـم كلّ منهـما على الآخـر، ثمَّ رآه يأتي

إلى المقهى في آخر الليل ويجلس وحيداً حتّى تجدّدت علاقتهما بسبب سالم فرج حنفي الذي كان متعلّقاً به ويأخذ رأيه في الكتب التي يجب أن يقرأها واللوحات التي يرسمها ويحتفظ بها في البيت. كان الأمير يحبّه ولكنّه يحسّ دائماً بأنّه لن يكون صديقه مثل سالم أو أيّ صديق آخر من الشلّة، إنّه يأتي ويسترخي على مقعده ويظلّ صامتاً طول الوقت وهو ينظر إلى أيّ شيء دون أن يقول كلمة واحدة. ممكن أن يقضي السهرة كلّها هكذا. وعندما يتحدّث معه يصغي إليه باهتمام بحيث يظلّ يتكلّم حتّى يلاحظ أنّ عينيه لا تريانه جيداً بل هي لا تريانه على الإطلاق. حينئذ كان الأمير يشعر بالحرج ولا يعرف إن كان عليه أنّ يتوقّف عن الكلام أو يستمر فيه. أمّا إذا تحدّث فإنّ صوته الخفيض يبحث عن الكلمات التي يقولها كلمة كلمة في جهد واهتمام وشيء من الضيق، وبعد ذلك يجده قد توقّف فجأة مثل أيّ إنسان انتهى من الموضوع الذي كان يتكلّم فيه. كان الأمير يدهش عندما يراه وهو يرافق العم عمران ويسهر معه، وكذلك وهو يجلس هناك ويتكلّم طويلاً مع أصدقائه الأغراب عن إمبابة. الشيء الذي حيّر الأمير فعلاً أنّه كان في بعض الأيام يلتقي معه ويسأله عن وجهته فيخبره أنّه ذاهب إلى البيت لكي ينام أو ذاهب إلى العمل لأنّه تأخر عن موعده، ويودّعه ويراه يمشي في الاتجاه المعاكس للمكان الذي ذكره. ويستغرب الأمير ويذهب إلى المقهى فيجده جالساً هناك وأمامه كوب من الشاي، وما إن يراه حتّى يستقبله مرحّباً وكأنّه لم يره من مدّة طويلة مع أنّهما كانا يتكلّمان منذ دقائق قليلة فقط.

كانت هذه التصرّفات في البداية موضوع كلام وضحك وأصبحت

مع الوقت مسألة معتادة، لذلك لم يستبعد الأمير أن يرى يوسف وهو يأتي الآن من شارع السودان أو يراه جالساً داخل المقهى أو وراء كشك الخواجة يشرب البيرة مع أنّه ركب الترولّلي أمامه ونزل إلى وسط البلد. وقال الأمير إنّه فعلاً إنسان طيِّب وشعر نحوه بحبّ شديد وتمنّى أن يراه فعلاً. بالأمس فقط كان يجلس معه في عوض الله وعندما انتهى من حلّ الكلمات المتقاطعة قال: «حاجة غريبة». وأخبره أنّه اكتشف أنّ تاييس كانت عشيقة الاسكندر الأكبر: «تصوّر؟» وابتسم الأمير ابتسامة خفيفة. ومن مكانه عند مدخل المقهى رأى الواجهة الخلفية للجامع الكبير العالي، جامع خالد بن الوليد، بلونها الأصفر المبتل من المطر القديم، وسوره الحديدي المطلي على طول الطريق الجانبي المنحدر من شارع النيل أمام المقهى وهو يلتقي مع شارع مراد وشارع السلام عند ناصية الجامع، والرصيف العريض الذي بدا منحرفاً في نقطة التقائهما. وفي مقدمة ذلك الرصيف رأى العمود الحجري المتآكل، تعلوه تلك الذراع التي تمسك بالغطاء الكبير المقلوب، والمصباح المكسور دائماً، تطلّ من أعلى فوق العربة الخشبيّة التي ترتفع عن الأرض قليلاً، المقوّسة مثل قارب صغير، أو مثل مركوب والده الحاج عوض الله وهو مازال منسيّاً تحت سريره النحاسيّ الكبير، كانت محمولة على قاعدة مستوية من الأسياخ التي استقرّت في المنتصف بين العجلتين المدوّرتين وقد تقاطعت فيهما الأسلاك. ورأى المحور الذي يصل ما بين العجلتين وهو مقيد بسلسلة من الحديد إلى قاعدة العمود الحجري القديم، حتّى لا تضيع. ومن هنا، نظر الأمير عوض الله إلى الجاويش عبد الحميد

بائع السجاير وهو يجلس على المقعد وراء العربة وقد ارتدى جلبابه البني تحت معطفه الحكومي بأزراره النحاسيّة المطفأة وعلى رأسه طاقيّة صوفيّة بغطاء للأذنين. كان يجلس صامتاً وقد ضمّ ساقيه تحت الجلباب ووضع يديه في حجره، ثمّ رآه وهو يرفع يداً منها ويمدّ أصابعه التّي اختفت تحت أطراف كمّ المعطف الواسع، ويعدّل من وضع إحدى العلب الموجودة على سطح العربة، ثمّ أعاد هذه اليد إلى مكانها.

وقام الأمير واقفاً. سحب المقعد وراءه وعبر الطريق، وصعد إلى الرصيف العريض، ووضع المعقد إلى جوار السور الخلفي للجامع، وراء الجاويش عبد الحميد من الناحية اليسرى، واتّجه إليه واشترى علبة أخرى من السجاير، ورأى سطح العربة وقد وضعت عليه أعداد من بواكي المعسل وصناديق الدخّان ودفاتر البافرة وعلب السجاير المفتوحة والمغلقة. وفي مقدمة العربة، كانت اللّمبة السهاري في غلاف علبة السجاير المدوّرة حول شعلتها الدقيقة. مدّ الأمير يده إلى كومة الأوراق الرفيعة المقصوصة التّي وضعت إلى جوارها، وتناول واحدة، أشعلها من اللّمبة وأشعل سيجارته، وعاد إلى مقعده مرّة أخرى. ومن هنا، راح يتطلّع إلى المقهى.

* * *

عندما رآه وهو يعود، خرج ووقف في المدخل المفتوح. ولكنّ الأمير لم يحدّثه بشيء بل سحب مقعده إلى الناحية الأخرى. وارتاح بال عبد الله. كان يعرف أنّ الأمير انصرف لكي يكشف ما يحدث

بين المعلّمين المجتمعين عند الحاج خليل صلّي على النبي، ولو كان عرف أيّ خبر جديد كان أخبره به أو نظر له نظرة ذات معنى لأنّهما يتبادلان الأخبار ولا يداري أحدهما شيئاً عن الآخر. هو يراقب المقهى من الداخل ويعرف اتصالات المعلّم عطية وأحواله ويخبر الأمير، والجاويش عبد الحميد يدرس اتصالات المعلّم صبحي وأحواله ويخبر عبد الله، الذي يسمع ويحكي للأمير، وهو يضع النقط على الحروف ويشرح له كلّ شيء. الأخبار التي جاء بها من الجاويش عبد الحميد عن اتصالات المعلّم صبحي مع الهرم بائع الحشيش التي جعلت الأمير يفهم ويخبره أنّ المعلّم صبحي سوف يشتري البيت والمقهى. ومع أنّ عبد الله لم يصدّق في الأول لأنّ الهرم ليس له دخل بهذا الموضوع فإنّ الأيام أكدّت صدق هذا الكلام. وتقدّم إلى وسط الطريق وقال: «أجيب شاي والاّ تأخذ قهوة؟».

وهزّ الأمير رأسه موافقاً دون أن يقول شيئاً. وتردّد عبد الله قليلاً ثمّ استدار ووقف في مدخل المقهى، ووضع يده في جيب المريلة وقال: «وعندك شاي تقيل للأمير وصلّحه».

(١٠)

أكل المعلّم رمضان نصف البرتقالة الآخر، وهو يتطلّع إلى الأسطى سيّد طِلِب الذي كان يبتعد في شارع السوق وقال: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله». ووضع ساقاً على ساق وأمسك بها بكلتا يديه حتّى لا تفلت لأنّها كانت قصيرة وبدينة ولا يمكنها أن تثبت وحدها على ساقه

الأخرى. وكان المعلّم رمضان قد صار معلّماً فعلاً منذ توقّف عن عمل الفطير والبسبوسة وركن إلى الراحة.

في البداية استغربوا جدًّاً. خصوصاً الأسطى سيّد طِلِب الذي ذهل عندما رآه يصرف الصنايعي ويجلس أمام الدكان لا شغلة ولا مشغلة. ظنّه يتعرّض لظروف عائلية ولكنّه رآه يضحك ويهزّر ويعتني بنفسه ويحلق ذقنه كلّ يوم ويقرفه معه لأنّه يأخذ نصفها على الأقل بالملقاط. ثمّ رآه وهو يأتي بأولاده ويزيل الواجهة الزجاجية ولا يبقي إلّا على الفرن فقط: «اتجن». قال الأسطى سيّد: «الحشيش جننه». ثمّ فهموا السبب عندما عرفوا أنّ المعلّم رمضان يصرف تموين الدقيق والسكّر بترخيص الدكان ثمّ يبيعه بالسوق السوداء ويعيش هو عياله من فارق السعر وقال: «الله. مادام محصّلة بعضها، لزومه أيه الوقفة قدّام الفرن طول النهار؟» وقال مسكين الأسطى سيّد تأخّر لأنّ كلّه شغال بالمكاوي والكهرباء والشامبو: «خلّي الموالد تنفعه». وتذكّره أيام زمان عندما جاء بشعره الأسود المفروق والبدلة الكاملة واستأجر العين وتذكّر العين وأيام العين، والشيخ حسني وحسين عبد الشافي الله يرحمه ويوسف مصطفى الله يرحمه وبدأ يرتجّ بالضحك عندما تذكّر أنّهم كانوا يذهبون لصلاة الفجر في رمضان وهم مساطيل. كان الشيخ حسني هو إمام المصلّى الذي على البحر، وعندما خرجوا من حارة (حوّا) نظر عبد الخالق الحانوتي ورأى زين وهو يوشك أن يؤذّن لصلاة الفجر وقال: «الحق يا شيخ حسني، الواد زين ناوي يدّن واحنا لسه ماشربناش».

وصاح الشيخ حسني: «يا واد يا زين. استنّى يا واد بالفجر شوية لغاية ما نشرب».

وانتظرهم زين حتّى عبروا الطريق واتجهوا إلى الزير الموضوع تحت الشجرة وشربوا من مائه البارد، ثمَّ أذّن لصلاة الفجر. وعندما أراد المعلّم أن يتوقّف عن الضحك لكي يقوم ويغسل يديه من البرتقال تذكّر ليلة المأمور ولم يستطع أنّ يتوقّف وقال «اللهم اجعله خير».

(العمّ عمران يحمل رسالة من الملك السهران)

في كلّ المرّات التي كان الجاويش عبد الحميد يذهب فيها إلى العين، كان يميل ويطلّ من تحت الباب ويلقي بالسلام حتّى يتبيّنوه ويقوم المعلّم رمضان ويرفع الحاجز الحديدي ويعود إلى مكانه بينما يكون الجاويش قد رفع الباب وانحنى إلى الداخل وأنزله مرّة أخرى. وقبل أنّ يجلس الحاج موسى يطلب منه أن يعيد الحديدة إلى مكانها. أمّا الأسطى سيّد طِلِب فقد كان يرجوه أنّ يخلع البندقية ويتركها بعيداً عن النار.

في بعض الأيّام كانوا يتركونه بالخارج ويتشاغلون عنه بالكلام داخل الدخان وكأنّهم لا يرونه. وكان عبد الحميد يحاول أن يلفت نظرهم وهو يركع في الشارع ويمدّ البندقية تحت عقب الباب ويخبّط لهم بالماسورة لكي ينبّههم دون فائدة. وعندما يموتون من الضحك عليه كانوا يسمعونه وهو ينفجر ضاحكاً هو الآخر ويسمعون وقع قدميه وهو يبتعد حتّى لا تحدث فضيحة لأنّ المفروض أنّ العين خالية ولا يوجد بها أحد، ثمَّ لا يلبث أن يعود مرّة أخرى. حينئذ كانوا

يدخلونه ويجلس معهم ساعة أو ساعتين. وأراد أن يقوم ويخرج لكي يرى الآمن ويمرّ على الكيت كات. وعندما خرج وأنزل الباب واستدار لكي يتّجه ناحية مقهى عوض الله رأى حضرة المأمور والسيِّد معاون المباحث ومجموعة من الضبّاط والمخبرين قادمين من الجهة الأخرى. ولم يجد أمامه إلّا كلمة أو كلمتين على سبيل التحذير قالهما وهو مسطول وجرى سريعاً إلى قطر الندى وهو يسند البندقية الطويلة على كتفه الأيسر، ودخل إلى بيت الأسطى قدري الإنجليزي وأطلّ برأسه من هناك.

اقترب حضرة المأمور ومن معه ورأوا الدخان يتدافع من تحت باب العين المرفوع قليلاً عن الأرض. وتوقّفوا جميعاً عن السير وانحنى أحد الضباط ونظر ورآهم مشغولين بالكلام داخل الدخان. ونظر المعلّم رمضان مثل عادته تحت الباب ولمح البدلة الشتويّة السوداء والقطع النحاسيّة الصفراء وظنّه الجاويش عبد الحميد قد عاد فقام ساخطاً ونزع الحديدة وهو يقول: «أنت رجعت يا حمار؟».

واعتدل ورأى نفسه أمام حضرة الضابط وحضرة المأمور والسيد معاون المباحث، وظلّ المعلّم رافعاً ذراعيه ممسكاً بحافّة الباب وقد أحجم تماماً عن الحركة، ثمّ انتفض فجأة وقال: «يا نهار أغبر، دي الحكومة جت يا جدعان».

وأغمي لحظتها على الأسطى سيّد طِلِب الحلّاق. (قال بعد ذلك إنّه أغمي عليه لأنّ التعميرة كانت رديئة) ولكنّ السيد معاون المباحث أمر الأسطى أن يقوم ويفيق بدلاً من البهدلة. وطلب منهم جميعاً أن

لا يتحرَّكوا من أماكنهم وبحث في أيديهم وتحت أقدامهم وفتّش جيوبهم ولكنّه لم يجد شيئاً لأنّ الشيخ حسني كان يخَبّىء الحشيش داخل فمه الكبير المُقْفَل (عندما سألوه عنه بعد ذلك قال إنّه ابتلعه). وسألهم حضرة المأمور عن عسكري الدورية المدعو عبد الحميد وأمرهم أن يقفوا في طابور وراء بعضهم ويتقدّموا تحت الحراسة المسلّحة. والجاويش عبد الحميد قال إنّه رآهم يسيرون هكذا في شارع السوق الذي كان هو شارع مراد ومشى خلفهم من بعيد. وبعد ذلك رفع المعلّم رمضان رأسه ورأى أباه الحاج محمود الشامي يقف في بلكونة البيت بالجلابيّة والطاقيّة ويطلّ على الشارع فتسمّر في مكانه. أصله من المعروف أنّ الحاج محمود كان لا يهدأ أبداً ويضرب أولاده المتزوّجين بأيّ شيء من الحديد أمام الناس ويبدو عليه أثناء غضبه العنيف أنّه يريد فعلاً أن يقتلهم وهو يبرطم بالكلام غير المفهوم. وراح المعلّم رمضان يطلب من حضرة المأمور وحضرات الضباط أن يتركوه يسير خارج الطابور بحيث يبدو عليه أنّه يتفرّج على ما يحدث وشخطوا فيه وأمسكوا بخناقه وجرّوه من هدومه وبهدلوه ولكنّهم لم يفلحوا في زحزحته وظهر عليه أنّه يفضّل أن يموت في هذا المكان بالذات ولا يفعل ذلك، فسمحوا له أن يسير خارج الطابور. وعندما أصبحوا تحت البلكونة بدأ المعلّم يضحك بصوت مسموع ويقلب في جيوبه ثمّ رفع رأسه وفوجئ برؤية والده فألقى عليه السلام ولكنّ الحاج لم يردّ ومال على حافّة البلكونة وراح ينظر إليه وإلى رجال الأمن والطابور الطويل الذي يسير صامتاً، وأسرع هو بالابتعاد يطوّح ذراعيه مرحاً حتّى وصلوا إلى ميدان الكيت كات

وأمرهم المأمور بالوقوف صفّاً وراء جدار القاعة الشتويّة أمام باب الملك. وقال الجاويش عبد الحميد إنّه اقترب أكثر وأطلّ ورأى حضرة المأمور وهو يوقفهم أمامه مثل التلاميذ ويزعق فيهم ويقول إنّها المرّة الأولى طول مدّة خدمته التي يرى فيها تجّار البلد المحترمين يشربون الحشيش داخل دكان في شارع مراد الذي هو الشارع الرئيسي في المدينة، ثمّ رآه وهو يضع يده في وسطه ويمشي أمام الطابور ويقول إنّها مهزلة أن يأتي اليوم الذي يرى فيه من كان يمنحهم ثقته يفعلون هذه المسخرة. القدوة، كبار البلد وأعيانها. المثل الصالح لأبناء إمبابة الكرام ويكون عندهم كلّ هذا الاستهتار: «آه يا غجر». ثمّ سألهم فجأة عن الرجل الأعمى الذي كان معهم وقال الجاويش إنّه نظر وتأكّد أنّ الشيخ حسني قد اختفى بالفعل، ثمّ سمعه وهو يصيح فيهم إنّها المرّة الأخيرة التي يعتقهم فيها. وعندما خيّل له أنّه ردّد اسمه تراجع إلى الوراء وخبّأ نفسه. وحينئذ فتح المدخل الملكي في وسط الطابور تماماً، وأطلّ منه العم عمران الطبّاخ وأخبرهم جميعاً أنّ حضرة صاحب الجلالة الملك موجود ويطلب منهم أن يخفضوا أصواتهم لأنّه يسمعهم ولا يعرف أن يتكلّم بسببهم. وبهت حضرة المأمور وقال هامساً إنّها المرّة الأخيرة التي يعتقهم فيها وطلب منهم الانصراف. وأسرعوا بالابتعاد في خطوات كبيرة حتّى وصلوا إلى شارع السوق. وعندما رأى والده مايزال واقفاً في البلكونة أظهر له نفسه ووقف بحيث يمكنه أن يراه ولا يسمع كلامهم، ولكنّ الحاج ترك البلكونة ودخل، وظهر لهم الجاويش عبد الحميد فأخبره الحاج مرسي وهو يكاد يبكي أنّهم سوف يقدّمونه إلى المحاكمة العسكرية

ويسجنونه ثمَّ يرفدونه لأنّه ترك الملك في الكيت كات وجاء لكي يحشّش.

* * *

بعد ذلك وقف المعلّم على أجولة الدقيق الفارغة وراء الفرن وغسل يديه من حنفية الحوض، وغادر المكان وهو يخرج منديله ويجفّف يديه ويمسح فمه ويتّجه إلى المقهى. كان والده مايزال واقفاً في البلكونة بالطّاقية والجلباب ولكنّه استمر في طريقه حتّى اقترب ورأى على البعد تجمّعاً كبيراً من الكلاب فأدرك أنّ الأسطى قدري موجود في هذا المكان، ودقّق النظر ولمح الوجه الأسمر والشارب الكبير الأبيض وهو يطلّ من وراء الجامع. انحرف إلى الناحية اليمنى واختبأ وراء كشك الخواجة وأطلّ برأسه هو الآخر وضيّق ما بين حاجبيه وقال لنفسه إنّه على استعداد لقطع ذراعه إن لم يكن هذا هو الأسطى قدري الإنجليزي. وحاول المعلّم رمضان أنّ يحدّد الشيء الذي ينظر إليه الأسطى من بعيد ولكنّه لمْ يعرف. تراجع المعلّم ودخل شارع السلام ثمّ اتّجه يساراً إلى شارع مطر وخرج إلى الميدان من ناحية المراحيض الحكومية وتقدّم بهدوء حتّى وقف وراء الأسطى تماماً. كان يباعد ما بين ساقيه ويخبّئ جسمه كلّه ويطلّ برأسه فقط. وضع المعلّم يده على كتف الأسطى الذي قفز في مكانه، وقال: «مساء الفلّ يا أسطى قدري».

وسحبه من يده إلى المقهى حيث استقبلته الشلّة استقبال الغائب، وصافح هو كلاً من قاسم أفندي والأسطى سيّد والعمّ عمران

والجـويني والريّس نمـر وعبد الخـالق وكأنّـه يلتقي بهم للمـرّة الأولى. وعندما جلس قال الأسطى سيّد وهو يميل عليه إنّهم أرسلوا له وسألوا عنه ولكنّ الجماعة في البيت كانوا يقولون إنّه خرج وذهب إلى المقهى: «إيه الحكاية؟».

وشعر الأسطى بمزيد من الارتياح وقال إنّـه كان مشغـولاً في بعض الأعـمال ومازال مشغـولاً حتّى الآن، وابتسم ابتسامـة مبهمة ولكنّـه لم يقل شيئاً آخر لأنّه لم يكن مطمئناً، واكتفى بـأن مال إلى الأمـام ونظر إلى قـدميه واستمـع باحـترام إلى الأسطى سيّـد طِلِب وهو يقـترح أن يقيمـوا صوانـاً صغيراً في الـوسعايـة مع دستـين كراسي. ولكنَّ عبـد الخالق الحانوتي ضحك من كلام الأسطى سيّد وقال إنّ الجـو بارد ولا داعي للتكلفـة ومن الأفضل أن يعملوا اللّيلة في بيت أيّ واحـد منهم لأنّ الحكاية لن تستغرق ساعة أو ساعتين: «وكلّ سنـة وأنت طيّب». ورفع الأسطى قدري الإنجليزي رأسه وعرض فجـأة أن تكون اللّيلة عنده وشعر بأنّه قد ستر شيئاً وهو يقول هذا الكلام فأصرَّ عليـه حتّى بعد أن وافقوا وصفّق محيي النقّاش وجاء عبد الله القهوجي وبعـد أن طلبـوا منه الـطلبـات لم ينصرف بـل وقف ينـظر إليهم وقـد اكتملت شلّتهم ثمّ أدار رقبته الرفيعة ناحيـة قاسم أفنـدي وسألـه إن كان قـد أخبرهم بالكلام المكتوب في الجرايد أم لا. وتـوقّفوا والتفتـوا بدورهم إلى قـاسم أفندي الـذي تأمّلهم وهـو يجلس بقـامتـه الضئيلة ووجهـه الصغير وأذنيه الكبيرتين، وأنزل ساقه اليمنى من على اليسرى ومدّ يده إلى جيب سترته وأخرج الجورنال وفتحه على الحوادث وقرأ أنّ السائح الإيطالي دافيد موسى قد عاد من إيطاليا وتقدّم إلى مـأمور قسم إمبـابة

ببلاغ ضدّ المواطنين في منطقة الكيت كات لأنّهم استولوا على الأراضي التي اشتراها عام ١٩٤٤ والمملوكة له بعقود البيع المسجّلة بالشهر العقاري المصري في العام نفسه من السيِّدة نفيسة هانم مصطفى أوده باشا والأخرى من الخواجة فرديناند مفوّضاً عن النادي السويسري بإمبابة أثناء إقامته في مصر التي بدأت منذ عام ١٩٠٠ وحصل خلالها على الجنسيّة المصريّة والتحق بمدارسها وأتمّ دراسة الحقوق بها عام ١٩٢٣ إلى أن غادرها عام ١٩٥٦. وتوقّف قاسم أفندي ونظر إليهم ثمّ قال: «لا: شوف بيقول إيه كمان؟» إنّه عندما وصل إلى مصر في ١٩ أغسطس وتوجّه لرؤية ممتلكاته التي تشمل منطقة الكيت كات وتمتدّ حتّى شارع ترعة السواحل فوجئ باختفائها وظهور العمارات الشاهقة والمحلّات التجارية بالإضافة لاختراق الشارع الرئيسي لها، الأمر الذي تعجّب له، ثمّ قدّم السائح مستندات ملكيّته لهذه المنطقة الصادرة من الشهر العقاري المصري، وطوى قاسم أفندي جريدته وأعادها إلى جيبه وهو يقول إنّ النيابة تحقّق الآن في الموضوع وأنتم تجلسون مثل صينية القلل. ودخل المعلّم عطية وهو يعرج قليلاً، ورآه عبد الله وانتبه لعرجه وهو يدخل لكي يجلس على المقعد وراء المكتب الصغير، ودقّق في مؤخّرته ورأى البنطلون أضيق من المعتاد وغير معتدل من الجنب بسبب رباط الشاش الداخلي والتفت عبد الله والتقت عيناه بعيني الجاويش عبد الحميد وأيقن أنّ كلامه سليم وأنّ المعلّم عطية مجروح فعلاً، وهزّ رأسه ووقف في مدخل المقهى وقد وضع يده في جيب الفوطة وحينئذ فوجئ بأنّ الهرم الكبير يمرّ إلى جواره: «القهوة السادة يا عبد الله».

واستدار وراه وهو يجلس بعيداً عن الشلّة، إلى جوار سليمان الصغير الذي كان يتابع المعلّم رمضان وهو يطلب من فاروق أن يذهب إلى ابن الدسوقي ويحضر منه ماكينة بالتخفيض لأنّهم سوف يقيمون ليلة للعمّ مجاهد ثمّ سأله إن كان خليل قريبه فعلاً كما يقول شوقي. وهزّ فاروق رأسه موافقاً وطلب أربعة جنيهات لأنّ هذا أقلّ مبلغ ممكن، وعندما تردّد المعلّم رمضان وقال إنّ المبلغ الذي تمّ جمعه كلّه عبارة عن خمسة جنيهات قام شوقي غاضباً وهدّد بالانصراف لأنّه كان يظنّ أنّ فاروق سوف يطلب سبعة جنيهات. وقال قاسم أفندي وهو يجلس أمامهم في الناحية الأخرى: «أدّيله يا معلّم. فاروق ده ولد كويّس». ونظر إلى فاروق نظرة ذات مغزى ولكنّ فاروق لم يستجب لها. أعطاه المعلّم الجنيهات الأربعة وطلب منه الأسطى سيّد أن يحاول التخفيض على قدر الإمكان لأنّ هذا المبلغ قد تمّ جمعه من الأهالي وأيّ فلوس سيتم توفيرها سوف تصرف على اللّيلة، وطلب منه أن يشرح هذا الموضوع لقريبه ولكن بالعقل وأن يمرّ على الشيخ حمادة الأبيض لأنّه اتفق معه وينبّه عليه بالحضور لإحياء اللّيلة في بيت الأسطى قدري، فقال شوقي إنّه سوف يرافق فاروق لكي يفعل ذلك بنفسه.

عندما رآهما ابن الدسوقي وهما يقفان في مدخل محل الفراشة قام من وراء مكتبه المغطّى بقطعة الجوخ تحت اللّوح الزجاجيّ وظلّ يتطلّع إليهما فترة من الوقت ثمّ يطلب منهما أن يتفضّلا وقال: «أهلاً وسهلاً».

كان شوقي يتحرّك بعصبيّة ويبرطم بالسباب للدنيا والناس التي لا

تفهم ولا تقدّر، دون أن ينظر إلى شيء محـدّد. وأخرج ابن الـدسوقي علبة سجائره وعزم عليهما وهو يشعر بالقلق لأنّ شـوقي كان زميله في سلاح المدفعيّـة. وطلب من أحد الصبيـان أن يذهب ويحضر الشـاي وعاد ليقول: «أهلاً وسهلاً». وفكّـر عندمـا رآه وهو يـأتي من الخلف وقد تأخّـر عن طابـور الصباح وأمسـك به الجـاويش وهو يتسلّل بـين الصفوف ورفع يده وضربه بـالقلم على قفـاه. لقد رآه ابن الـدسوقي وهـو يلمّ صدر قميص الجـاويش في قبضة يـده ويـرفعـه عن الأرض ويضربه بالدماغ ويسيح دمه ويتركه يقـع في الأرض وعنده ارتجـاج في المخّ أمام العساكر والضبّـاط. من يومها لم يره خليـل إلّا مسجونـاً عند البوّابة والمساجين يخدمونه. وعندما كانوا يفرجون عنه كـان يلتقط أيّ رتبة تصادفه ويضربها بالدماغ يسيح دمهـا حتّى يعود إلى هنـاك. وقال ابن الدسوقي وهو يقلب الشاي: «خطوة عزيزة».

وتحـدّث فاروق وشرح المـوضـوع وقـال إنّ العمّ مجـاهـد ليس لـه أقارب وأنّ كلّ واحـد يجب أن يشارك في هـذه المناسبـة. ومع أنّ ابن الـدسوقي كـان يستمع بـاهتمام فـإنّه كـان مشغولاً أكـثر بإخفـاء قلقه الشديد حتّى فاته معظم الكلام. وعنـدما لاحظ أنّ فـاروق قد انتهى مدّ يده إلى جيب سترته الداخلي لكي يخرج المحفظة وفكّـر بأنّ ذلـك قد لا يكون مـلائماً فـأخرجهـا خاليـة وانشغل بـإعادة أكـواب الشاي الفـارغـة إلى الصينيّـة. وعنـدمـا عـاد للجلوس قـال إنّهم في المقهى يريدون منـه أن يعطيهم المـاكينة حتّى يقـرأ فيها الشيـخ حمادة الأبيض ربعـاً من القرآن. ونـظر ابن الدسـوقي بجـانب عينـه ورأى الغضب المستولي على شوقي وقام واقفـاً وهو يقـول إنّه لن يـطلب أيّ أجر من

أجل خاطرهما ولكنّه لا يستطيع أن يترك ماكينة تكبير الصوت دون تأمين. وقال شوقي وهو يقوم واقفاً إنّ أي إنسان غريب يسمع هذا الكلام: «يقول على طول إنّك مش واثق فينا. عيب يا خليل. عيب». ودقّ بيده الثقيلة على كتف خليل فثارت بينهما سحابة من التراب وقال شوقي وهو ينزل يده: «أف. إيه ده؟» والتفت إلى فاروق: «ما تقوم وحياة أمّك أنت كمان».

واتّجه إلى صندوق الماكينة الحديدي وحمله تحت إبطه واستدار خارجاً وهو يلتقط الحامل ذي القاعدة المستديرة، بينما اتّجه فاروق إلى السمّاعة المعدنيّة الكبيرة وحملها على كتفه مع حزمة السلك الطويل المجدول والتقط الميكروفون من على رفّ الدولاب الزجاجي المفتوح الممتلئ بأصناف من فناجين القهوة وأكواب الماء وغادرا الدكان بينما كان ابن الدسوقي يخرج في أثرهما ويقول وقد فقد السيطرة على غضبه إنّ الماكينة والسمّاعة والميكروفون والأسلاك مسؤولة منهما ولكنّهما لم يردّا وذهبا إلى بيت الأسطى قدري الإنجليزي ووضعا حملهما ثمّ أخذ فاروق السمّاعة والأسلاك وحبال الربط وعبر الطريق حتّى وصل إلى بيت الجاويش عبد الحميد وصعد الدرج لغاية السطح أمام البرج الذي يسكنه العمّ عمران وربط السمّاعة في الصارية الخشبيّة ووجّهها بحيث تطلّ من أعلى على ميدان الكيت كات وألقى بالأسلاك من فوق إلى شوقي الذي أدخلها من نافذة الأسطى قدري وقابل فاروق على الباب ودخلا إلى بيت أمّ شربات ووقفا أمام حجرة أمّ روايح حماة سليمان الصايغ ونظرا إلى ساقيها المطويّتين على الكنبة أمام التليفزيون وسألها فاروق إن كان الشيخ حمادة الأبيض موجوداً بشقّته

فنـظرت إليهما بعيـونها الضاحكـة وقالت إنّـه موجـود وسألتـه عن أمّه فأخبرها أنّه يبحث لها عن عريس. وصعدا وهو يتبـادل النظرات مـع شوقي الذي كان قد سبقه من الخجل. واستقبلهـما الشيخ حمـادة وهو يسدّ الباب الموارب بجسده ويطلّ عليهما بوجه شاهق البياض ويقـول إنّه اتفق مع ناس جزيرة سيدي اسماعيل وأنّـه سوف ينتهي من هنـاك ويحضر لهم بعد ذلك، ولكنّ شوقي الذي كـان يتفرّج عن قـرب على رموشه الفضيّـة وهي تبربش عـلى عينيه المحمـرَّتين شبـه المغمضتين، طلب منه أن يحضر إلى بيت الأسطى قدري أوَّلاً ثمَّ يذهب بعـد ذلك إلى أيّ مكـان يريـد أن يذهب إليـه. وعاد فـاروق مـع شـوقي وثبّتـا الحامل والميكروفون وتساءل شوقي عن المبلغ المتبقّي معهـما الآن فقال فاروق إنّه أربعة جنيهات وقال شوقي: «صحّ».

وفتح فاروق مفاتيح الماكينة وراح يضبط الصوت ويقول: «نجري الآن بعض التجـارب». وطلب من شـوقي أن يتكلّم في الميكـروفـون فقال بصوت عال: «ألو. ألـو»، ثمّ ابتسم. وحينئذ قـال فاروق في الميكـروفون ذي الصـوت المدويّ: «سيِّـداتي آنساتي سـادتي، صـوت العرب يحيِّيكم من مدينـة إمبابـة. ويتحدَّث إليكم من شقّـة الأسطى قدري الإنجليزي».

(١١)

يوسف النجّار سكر من زجاجة الروم الصغيرة وطلب من سيّد أن يـأتيه بـزجاجـة أخرى. لم يتـذكّر فـاطمة إلاّ عنـدما بحث عن علبـة الكبريت وعثرت أصـابعه عـلى مفتاح الشقّـة. تذكّـرها ولكن صـدى

الهتافات التي سمعها كان مايزال موجوداً داخل رأسه كالطنين الخفيف الذي لا ينقطع. لم يكن يعرف ما به تماماً ولا ما جعله يأتي إلى البار ليشرب وحده ولكنّه فكّر في البنت الصغيرة السمراء المحمولة فوق الأعناق وقد ربطت شعرها بالإيشارب واستغرب جرأتها التي لم يقدّرها وعلامات الغضب التي غيّرت ملامحها هكذا وهي على أعناق الرجال. تلك المرأة الطفلة. وتذكّر منصور وفتحي وفيّاض وعبد القادر وحسب الأعوام ووجدها خمسة. وقال في تلك اللّيلة دعاك عبد القادر وشربت الخمر أيضاً ولكن في بار آخر وشعر أنّه صار بعيداً وقال لست وحدك. وأكل حفنة من الفول النابت وصبّ كأساً وفكّر في روايته التي أراد أن يكتبها والأوراق التي سجّلها وقال رغم الأعوام وسكرك مازلت تذكر كلّ شيء لأنّك كتبته عشرات المرّات دون أن تعرف ماذا تفعل بعد ذلك. لقد كانت تمطر. لأنّك بدأتها بالحديث عن المطر ثمّ خروجك من البيت بعد أن كلّمك أبوك الذي كان حاً وذهابك إلى مقهى عوض الله وركوبك الترولّلي باس ونزولك في ميدان عرابي وذهابك إلى ميدان طلعت حرب وحلقات الناس أوّل ما قابلك في الميدان حول الطالب أو الطالبة والحلقة الكبيرة حيث وقفت والرجل الأبيض بشعره البنّي القصير وهو يجادل الطالب أمام الناس بصوت هادئ حول ظروف البلد والاحتلال الذي يستدعي من كلّ واحد أن ينصرف إلى عمله بينما عيناه المفتوحتان عن آخرهما تحدّقان في عيني الطالب وقد اشتعلتا بكلّ ألوان التحذير والوعيد. أنت لا تنسى هذه النظرة أبداً ويمكنك أن تتعرّف الآن على رأس صاحبها ولو اختبأ منك بين جبال من الرؤوس المقطوعة ولكنّك لم تكتب هذا.

وعندما أخبرك عبد القادر أنّ الذين يفتعلون هذا النقاش هم رجال المباحث لكي يوهموا الناس أنّهم المواطنون العاقلون الذين يرفضون الفوضى وأنّ الطلبة على خطأ ولا يقدِّرون المسؤوليّة صدّقته على الفور. عبد القادر عرف ذلك دون أن يرى الرجل أو يبارح المقهى، وأمّا أنت فلم تعرف ولم تصدِّق إلاّ عندما رأيت. لم تكتب ذلك ولكنّك كتبت أنّ الطلاء الذي كتبت به الشعارات التي رأيتها على الجدران كان مايزال طريّاً. لم تكتب عن الناس الذين تزاحموا يتفرّجون على الأرصفة وكتبت عن هؤلاء الذين يتمايلون وراءهم ويشبُّون على أطراف الأقدام، لكي يروا المظاهرة الكبيرة وعساكر الأمن المركزي الذين اصطفّوا أمام اير فرانس بعصيهم ودروعهم النظيفة وساقك التي جرحت عندما اصطدمت بصندوق القمامة الحديدي أمام العمارة وأنت تذهب إلى المقهى وصديقك مصطفى الرسّام الذي قال لك إنّ عساكر الأمن متشابهون لأنّهم يفرّخونهم وإشارات المرور في ميدان طلعت حرب التي كانت مصابيحها الخضراء والصفراء والحمراء تومض وتنطفئ عند مداخل الميدان لأنّك استغربت أن تفعل ذلك مع أنّه لم تكن هناك ولا عربة واحدة تأتي إلى الميدان أو تغادره. ما الذي جعلك تحبّ كتابة هذه الأشياء التي لا تذكرها الآن إلاّ لأنّك كتبتها ولم تكتب عن الأشياء الأخرى وعن الرجل الذي كان يناقش الطالب وينظر إليه مع أنّك تذكره دائماً دون أن تكتبه؟ كتبت أشياء ولم تكتب أشياء. كتبت أنّك جلست معهم في الممرّ الخارجي لمقهى ريش ورأيت الورقة الصغيرة التي كتبها فتحي بالقلم الجافّ وكلّ واحد يأخذ ورقة كاملة ويطويها على ورقة الكربون

وينقل فيها البيان المكتوب ويعمل منها نسختين ويقطّعها ويضعها على الــورق الآخـر فــوق المنضـدة وكتبت أنّ من يجلس في الخلف مثلك يضطرّ أن يضع ساقاً على ساق ويكتب عـلى ركبته وفي كـلّ مرّة تقـوم وافقـاً وتميل عـلى الجالسـين وتمدّ يـدك لكي تضع الـورقتين مـع بقيّة الأوراق المكتوبة. . لم تكتب صيغـة البيان ولكنّـك كتبت عن النافـذة التي تطلّ على المقهى من الداخل والمناضد الخـالية والمفـارش القطنيّـة التي زُيِّنت أطرافها بالخطوط الزرقاء والحمراء والثلّاجة الكبيرة ولوحها الزجاجي المغبّش الذي منعك دائماً من رؤية ما بداخلها ولفّافة الورق عـلى سطحهـا والآنية ذات العنق والـزهور الـبرّية والسـلالم والمدخـل المؤدّي إلى دورة المياه والجوّ البارد وقاسم الذي اشترى خمسة أمتار من القماش الأبيض ودواة من الحبر الأزرق وكيف أنّه نبّهك أن لا تعـطي كلّ واحد نسخة من بيان التأييد لأنّ الأوراق لن تكفي ويجب عليـك أن تعطي لكلّ مجموعة ورقة واحدة وتخـبره أنّك تـريد أن تـذهب مع أحدهم ويخبرك أنّ كلّ اثنين سـوف يذهبـان معاً وتـأخذ نصيبـك من الأوراق المكتوبة وتذهب معهم إلى ميدان التحرير وترى الطلبة الذين اعتصموا والرجال والنساء الأجانب الذين وقفوا أمام ايزافتش وآلات التصوير وإعـلانات الأفـلام الملصقة عـلى اللافتـات الكبيرة والكلمات التي أضيفت إلى أسـمائهـا وغـيّرت من معنـاهـا وقصـاصـات الأوراق المتناثرة والأحجار المخلوعة التي تسدّ المداخـل وأنت تتقدّم مـع فتحي وهـو يوزّع نصيبـه ويتبادل معهم التعليقـات الضـاحكـة وأنت تـوزّع نصيبـك وتشعـر بـالحـيرة والارتبـاك. لم تكتب عن ذلـك وكتبت عن الأجساد والثياب والأحذية. . الأحذية ذات الكعـوب العاليـة، والتي

ليست عالية والسليمة، والتي تآكلت ومالت إلى جانب. . الأحذية السوداء والصفراء والحمراء، والتي لها أربطة، والتي بدون أربطة، والتي تغطي القدم والأحذية الطويلة التي تغطي بعض السيقان. . السيقان المتحركة والثابتة والمضمونة والمنفرجة والعارية، والتي تغطيها الأقمشة. . الأقمشة الخفيفة والثقيلة والسترات المشقوقة من الخلف والمشقومة من الجانبين والبلوفرات والقمصان والبلوزات الملوّنة والمشجّرة والأيدي التي تحمل الكتب والأوراق والأرغفة والمناديل والأقلام والوجوه البيضاء والوجوه السمراء والعيون الغاضبة والعيون الضاحكة والعيون التي تنظر والعيون التي تخاف. والشعر القصير والشعر الطويل والأجسام المحتدمة التي تأتي إليك والتي تذهب عنك. كتبت عن سمير وفرج وسامي الذين قابلوك وهم يسرعون من أعلى يحملون الحقائب ويطلبون منك نسخة وتعطيهم واحدة يأخذونها وينصرفون. وتصل مع فتحي إلى القاعدة الحجريّة المستديرة وتجد قاسم وفيّاض وعطية قد سبقوا إلى هناك وكتبوا التأييد على اللافتة البيضاء بدواة الحبر الأزرق وعلّقوها وربطوها من أطرافها على النصب الرخامي مع اللافتات الأخرى. لقد هدأت الأصوات عند الغروب ورأيتهم من أعلى وقد توافدوا وأعطوا ظهورهم للنصب وسكنت الحركة عند المنافذ المؤدّية إلى الميدان وبدأوا يغنّون نشيد بلادي بلادي وفتحي ومنصور والجميع يغنّون. كتبت عن الليل والنجوم البعيدة وقاعدة النصب الكبير الخالي في قلب الميدان واللافتات وحركة الآلاف كأنّها الكائن الخرافي الواحد يغطّي الحشائش والأسفلت والأرصفة العريضة المتباعدة: البستان، قصر

العيني، سليمان، قصر النيل، شارع التحرير. كتبت عن ذلك ولم تكتب أنّك حاولت أن تشاركهم ولكنّك لم تقدر أن ترفع صوتك بالغناء وقلت لنفسك ما الذي يمنعك؟ إنّ أحداً لن يسمعك أو ينتبه إليك بين هذه الأصوات التي تملأ الدنيا وردّدت معهم مقطعاً أو مقطعين من النشيد الذي تحبّه ولكن شيئاً كأنّه الخجل هو الذي منعك. كتبت عن مسرح الجمهوريّة والقومي عندما ذهبت معهم وقابلت الممثّلين والممثّلات لكي يوقّعوا على البيان وراء ستائر الكواليس الثقيلة المدلّاة التي رفعتموها بأيديكم والممثّلة الشابة المعروفة في حجرتها المزدحمة وهي ترحّب بكم وتقبّل صديقتك وهي تبعد أصابعها بالسيجارة المشتعلة وتكتب اسمها في أوّل السطر وكلّ الموجودين معها يكتبون أسماءهم تحت اسمها والبنت ذات البنطلون القطيفة والفانلّة الصوفيّة الخضراء التي أعجبك صدرها. كتبت عن ذلك ولكنّك لم تكتب أنّك رأيت صديقتك وهي تميل على أذن الممثّلة الشابّة وتهمس لها أنّ الذي يقف بجوارك هو خطيبها وأنّك عرفت ذلك لأنّك رأيت الممثّلة ترفع حاجبيها وتقوم وتصافحه مرّة أخرى وتؤكّد على الاثنين أن يعودا لزيارتها. كتبت عن الحجرة الأخرى البعيدة التي لم تجدوا بها إلّا ممثّلة المسرح العجوز بوجهها المألوف ومائدة الزينة المزدحمة بالأدوات الصغيرة والمرآة الطويلة والأريكة الجلديّة الخالية وفساتين الحرير التي التمعت في الركن من ضوء المصباح المعلّق والشعر الطويل المستعار، وهي واقفة وسط الحجرة والأصباغ الحمراء تلوّن خدّيها وشفتيها تقرأ البيان وقد انحسر كمّ الثوب عن معصمها النحيل المعروق وتبكي بدموع تنحدر من عينيها

وتفسد أصباغ خدّيها وهي تطلب القلم لتوقّع بيدها المرتجفة وتعبّر دون أن تجفّف دموعها عن فرحتها لأنّنا اخترناها وأتينا إليها. أنت لم تعرف أبداً ما هي المسرحيّة التي تعرض ولكنّك كتبت أنّها هاملت وأنّ السيّدة هي الملكة الأمّ وأنّك سمعت هوراشيو وهو يقول: «ها هو ذا قلب كبير قد تصدّع، طاب مساؤك يا أميري الحبيب»، ودار الأدباء التي أغلقوها في وجوهكم بسلاسل الحديد ونقابة الصحفيّين التي اجتمعت فيها مع الآخرين ثمّ يلقاك عبد القادر ويدعوك لكي تذهب معه إلى بار فينيسيا وعندما شربتما وأخبرك أنّ البلد تحوّلت إلى مجتمع خدمات بناسها وطوبها وشجرها للقادرين والطامعين من كلّ مكان وطلب منك أن لا تحمّل الأمور أكثر ممّا تحتمل وأنّه سمع في الإذاعة برقيّة تأييد للحكومة ومن بين أصحابها بعض الممثّلين الذين وقّعوا على البيان في المسرح القومي ومسرح الجمهوريّة وذلك بعد أن تبيّنوا خطورة المسألة وقال إنّ حركات الطلّاب لا تسقط الأنظمة ولكنّها تضطرّها إلى تبديل ثيابها حتّى تبلى وتكشف عن العورات المستورة بالحرير والحديد والنار وأنّ الأنظمة في الزمن الأخير تحتاط لنفسها من غوائل الأيام وتحتفظ بألوان لا أوّل لها ولا آخر من هذه الثياب وأنّ المشكلة هي الشارع الذي يتفرّج ويلوم وقال إنّه سمع بأذنيه فقراء القوم يقولون إنّ الطلبة يفعلون ذلك لأنّهم صغار وآباؤهم يصرفون عليهم وأنّهم لا يحملون همّاً. وعندما خرجتما من البار وقال إنّ الوطن يتحوّل وأنّنا سوف نكون آخر الورثة وأنّ أهمّ شيء الآن هو أن نكون حريصين على ما بأيدينا ولا نضيّعه أبداً حتّى يظلّ الوطن دائماً وطناً وأخبرته أنّك لم تستطع أن تغنّي معهم وينظر

إليك ويبتسم ويقول وأنتما على شاطئ النهر إنّه سوف ينصرف الآن لأنّ الوضع سوف يبقى كما هو حتّى الفجر وتسأله ويخبرك أنّ العسكر سوف يهاجمون الميدان عند الفجر ويضربون الطلبة ويقبضون عليهم ويفضّون الاعتصام لأنّ الميدان لا بدّ وأن يكون خالياً عندما يستيقظ الناس في الصباح ليذهبوا إلى أعمالهم ويطلب منك أن تصدّق وتعود إلى بيتك لأنّه سوف يذهب الآن ويستوقف العربة ويركبها وتخشى أنت أن يكون السكر بادياً عليك وتجلس على شاطئ النهر العريض.

وقد نظرت إلى هناك وأعجبتك المسلّة النحيلة والمئذنة المشبعتان بالنور الأصفر في سواد الليل على مقربة من مجلس قيادة الثورة وأشجار النخيل المائلة. وشعرت بالبرد فقمت تعبر الطريق بين سميراميس وشبرد واتّجهت إلى ميدان قصر الدوبارة والكنيسة الإنجيليّة ورأيت العربات الكبيرة المغطّاة بالمشمّع في الشارع الجانبي المظلم وراء مبنى المجمع الحكومي ولا صوت إلاّ ما يصدر عن أقدام الضبّاط عند الفتحات الخلفيّة لهذه العربات يلقون للعساكر الجالسين في الداخل بلفافات الطعام وحبّات البرتقال وسهرت مع أمل وصديقه الكويتي في شرفة عمارة بحري المطلّة على الميدان والباقون منهم جلسوا عند الفجر على حشائش الدائرة المنحدرة وقد تماسكت أيديهم ولم يتحرّكوا عندما اقتربت عساكر الحكومة وضربوهم بالعصي الطويلة وسحبوهم من أيديهم وأرجلهم وارتفعت صرخات البنات على الأسفلت وألقوا بهم في العربات وانصرفوا. وعندما ودّعتهم ونزلت رأيت عدداً من الرجال معلّقين في الحبال المدلاّة من قاعدة النصب العالي وهم يغسلون جدرانه المحمرّة وقد حمل كلٌّ منهم دلواً صغيراً

وفرشاة كبيرة خشنة. كانت لافتات القماش قد اختفت وفي قلب الميدان ركع رجال آخرون يزيلون الأحجار والكتابات المتعرّجة على أسفلت الشوارع العريضة المتقاطعة. وعندما ذهبت لتركب الأوتوبيس من وراء الهيلتون لكي تعود إلى إمبابة ورأيت الناس ينزلون ولاحظت آثار النوم التي كانت باقية في عيونهم كتبت عن ذلك مع أنّه ملعون أبو الناسٍ وأبو آثار النوم التي في عيونهم وملعون أبو المسارح والممثّلين والممثّلات وملعون أبو صديقتك وخطيب صديقتك وملعون أبو منصور وفياض وفتحي وقاسم وعبد القادر وعبد الفتّاح وخليل وملعون أبوها بلد وملعون أبوكم كلّكم. وأكل حفنة من الفول النابت وقال أنت سكران ولا تكتب عن هؤلاء واكتب عن الأشياء التي تعرفها أو اكتب عن عمران أو عبد الله أو المقهى أو أبيك الذي مات وأنَّ موت الفقراء ليس موتاً ولكنّه اغتيال ومن الأفضل أن لا تكتب عن أيّ شيء من هذه الأشياء أو يا ليتك تكتب عن النهر ومنازل الشاطئ الحجريّة وتقول إنّ لكلّ منزل أبناءه الذين ينزلون فيه، الأولاد يصطادون ويسبحون والبنات يغسلن الحصر وأواني البيوت وأنت تخرج من حارة الأفندي وتذهب إلى منزل (حوًا). لقد اصطدمت على طول الشاطئ ولكنك لم تذهب إلى النهر مرّة إلاّ ونزلت درجاته وأنت تلينّ قطعة العجين في [illegible] وتعرّي ساقيك وتجلس على أحد الأحجار التي تعرفها. أنت [illegible]

عشرون عاماً قد مضت

أنت سكران

وقال لا. أنت غضبان. . .

وعندما قال ملعون أبـوك، أنت الآخر، انتبـه يوسف النجّـار على صوت انفجار بعيد.

* * *

عندما خرج إلى شارع الألفي لم يجـد شيئاً ولكنّـه رآه مظلماً بسبب إعلانات الكازينو المطفأة. وفي طـريقه إلى ميـدان عرابي لاحظ أنّـه لم يلمح أحداً من الناس إلاّ منادي السيّارات العجوز في الجـانب الآخر من الميـدان. واتّجه إلى الـرصيف حتّى ناصيـة المكتبـة القـوميّـة ورأى اللوح الزجاجيّ محطّماً والكتب مبعثرة في كلّ مكان. ومن عنـد قفص الطيور الحديدي العالي استطاع أن يـرى الطريق وهـو مبذور بشـظايا الزجاج وكسور الأحجار. لم تكن هناك واجهة ولا نافذة ولا مدخل أو إعلان إلاّ وقد تحطّم وبدا ٢٦ يوليو وكأنّه مهجور من الناس. لم يكن يسمـع إلاّ صوت العـربات التي تمـرق وكأنّها تفـرّ من شيء مـا. عـبر الطريق ووجد نفسه أمام المراحيض الحكوميّـة عند دار القضـاء العالي فهبط الدرجات مسرعاً وتبوّل وحـده وخرج واتجـه إلى شارع رمسيس ثمّ انحرف يساراً بين معهد الموسيقى ومبنى مصلحة التليفـونات؛ وفي شارع الجلاء طالعته جموع من الناس. كانت واجهة جـريدة الأهـرام قـد تحطّمت، وسمعهم يقـولون إنّ مخـازن ورق جريـدة الأخبـار قـد احـترقت. ومشى يـوسف في الـطريق المـظلم وراء مستشفى الجـلاء للولادة وعاد إلى ٢٦ يوليو من ناحية بولاق. وأمام سينما علي بابـا كان الترولّلي بـاس محترقـاً ومبتلاً ومسحـوباً إلى الشـارع الجانبي القصـير، والأولاد الصغار يعتلون سطحه وفتحات نوافذه ويدقّون فيه بالأحجار والحديد ويخلعـون منه المسـامير والقـطع الصغيرة ويلقـونها في الطريق

ويفكُّون مقاعده ويخرجونها من الأبواب المفتوحة. واستغرب يوسف النجّار ونظر من مكانه واستطاع أن يرى المساحة الكبيرة في مدخل كوبري أبي العلاء وسحب الدخان الأبيض والأسمر التي تتصاعد حول أعمدة النار الحمراء. ودخل من الحارة الطويلة وراء جامع السلطان وخرج من عند مبنى التلفزيون إلى شارع ماسبيرو ورأى الإعلانات الخشبيّة الكبيرة محترقة في أماكنها وهي معلّقة على الحوامل الحديديّة أو محترقة وملقاة في وسط الشارع. كانت النيران قد شبَّت في السواتر المقامة من كسور الخشب عند منزل الكوبري الجديد والتهبت أكوام الزلط وأخذت حبّات منها تطقّ في الجدران البعيدة وحافة الرصيف وفي أجسام العربات الهاربة. وكانت أعداد من الناس المسرعة هنا وهناك تحذر منها. وعاد إلى مدخل الكوبري ورأى أنَّ النيران كانت تشبُّ في الأعشاب الكثيفة الخضراء النابتة قرب الماء. واتجه ناحية عمر الخيَّام وهو ينظر من فتحات الكوبري إلى دوَّامات النهر المحتدمة ويفكِّر بأنَّه لم يرَ جنديًّاً واحداً ولا أوتوبيساً واحداً منذ غادر ريجال وظلَّ يتقدَّم في طريقه إلى إمبابة. كانت الواجهات الزجاجيّة وإعلانات النيون في حيّ الزمالك مكسَّرة ومدلاَّة فوق مداخل المحلاَّت المتعاقبة بين جذوع الأشجار وأعمدة النور على بلاط الرصيف العريض. ومرَّ أمام نادي الضبَّاط حتَّى وصل إلى كوبري الزمالك وعبره وانحرف يمينا وسار على حافة الشاطئ، في طريقه إلى الكيت كات.

عندما وصل إلى هناك، رأى امبابة على حالها: المداخل المضاءة وعربات الفاكهة والكبدة والسمين ومطحن البن وأولاد صديق واللمّة

أمام التلفزيون المفتوح ومطعم الفول والأسطى بدوي الحلَّاق وبيع المصنوعات وكشك الخواجة والمكتبة والجاويش عبد الحميد ومدخل المقهى المزدحم. ذهب إلى حمص وملأ ولاَّعته بالبوتاجاز ثمَّ ذهب إلى عزمي البقَّال واشترى زجاجة أخرى من الروم ووضعها ملفوفة في جيب سترته الخارجي. كان السكر قد ذهب من رأسه وأراد أن يشرب مرَّة أخرى، ودخل من شارع السلام إلى سيِّد درويش وعبر شارع السوق إلى حارة حوًا حتى لا يلتقي بأحد. وعبر الطريق وهو يرى باعة الخضر والفاكهة قد وضعوا الأغطية على رؤوسهم وجلسوا متقاربين وقد أشعلوا كومة من حطام أقفاص الجريد. كانوا يستدفئون ويعملون الشاي، وكان هناك بعض الناس الذين تجمَّعوا على محطَّة الترولّلي باس. وقف يوسف على رأس المنزل المواجه لحارة (حوا) ثمَّ هبط درجتين من درجاته الحجريَّة المتباعدة، وخطا إلى الناحية اليمنى وجلس أسفل السور الحجري القصير.

خبَّأ نفسه تحت أشجار الخروع الرطبة المتدلِّية، بأوراقها العريضة الداكنة. أخذ يشرب خمرة الروم الكثيفة الحمراء.

* * *

كانت الرائحة تتزايد. حملها الهواء عبر النهر، والأشجار الكبيرة العالية، والبيوت البعيدة التي بلَّلتها الأمطار.

ليلة العزاء

عندما جلس الهرم الكبير إلى جوار سليمان الصغير شعر سليمان الصغير بالحرج وقام من مكانه ووقف في مدخل المقهى. لم يكن

يعرف إن كان عليه أن ينتظر فترة أخرى من الوقت أم أنَّ عليه أن يعود الآن إلى البيت ليرى إن كانت روايح قد عادت أم لا. وخشي من عدم عودتها لأنَّ ذلك كان معناه أن يذهب إلى أمّ روايح مرَّة أخرى ليسأل عنها ويخبرها أنَّها لم تعد. وقام قاسم أفندي لأنّه كان يريد أن يزوغ من الذهاب إلى المعزى ووقف إلى جوار سليمان الصغير وهو يطوي الجريدة ويعيدها إلى جيب سترته، وعرض على سليمان أن يجلس عند الخواجة ونزل من على الرصيف ووجد سليمان نفسه ينزل هو الآخر ويشتري علبة سجاير من الجاويش عبد الحميد ويتّجه معه إلى الناحية المقابلة حيث جلسا على مقعدين بين كشك الخواجة ودكّان الأسطى بدوي الحلاَّق. وقال قاسم أفندي: «أسقع وأحلى قزازتين بيرة عندك في التلاَّجة، اللِّي مافيهاش ثلج طبعاً».

ونظر الخواجة بجانب عينه وهو واقف على ناصية الكشك ويتّكئ بيده على فتحته المربَّعة. ومدَّ يده وداس على زرار التسجيل دون أن يتحرَّك من مكانه. وأخرج قاسم أفندي علبة سجائره وأعطى سليمان واحدة وأغلقها وأعادها إلى جيبه وقام واقفاً وفتح التلاَّجة وأمسك في كلٍّ يد زجاجة وقال: «يا ترى ناوي تفتحهم، والاَّ تحبّ تشربهم مقفولين، والاَّ إيه الموضوع بالظبط؟».

واعتدل الخواجة وهو ينظر عبر الشارع وأمسك بالمفتاح المربوط وفتحها وهو يقول وكأنّه يحدِّث أحداً آخر: «يبقوا أربعة».

وعاد قاسم أفندي، ووضع كلَّ واحد زجاجته تحت مقعده. لم يكن سليمان قد انتهى من سيجارته فأشعل قاسم أفندي واحدة وقال: «يا سلام. أبوك الله يرحمه كان حبيبي يا سليمان».

لم يكن سليمان الصغير قد نطق بكلمة واحدة. كان شارداً منذ أغلق الدكان وعاد لكي يتفرّج على المباراة ولم يجد روايح. وكان سليمان الصغير في الثلاثين ولا يعرف أحداً معرفة شديدة لأنّه قضى الوقت يأخذ المصروف من البيت وينزل إلى البلد ويدخل السينما. لم يترك سينما إلاّ ودخلها سواء كانت كوزمو أو أوديون أو لوكس أو القاهرة في وسط البلد أو أمير في شبرا أو مرمر في الدقّي أو سهير في العباسيّة. وجلس سليمان وحيداً داخل الشقّة. كانت روايح قد اختفت وكان يفكّر أنَّ عليه الآن أن ينتظر قليلاً ثمَّ يذهب ليسأل عنها عند أمّها ويشعر بالضيق لأنّه لم يكن قد ذهب إلى هناك أو تبادل الحديث مع حماته أبداً. وطمأن سليمان نفسه بأنَّ روايح سوف تعود.

لقد اشترى سليمان الكبير حجرة النوم الجديدة، وارتدى سترته السوداء بجيوبها المنفوخة وطربوشه القصير المائل على مؤخّرة رأسه وزرّه الذي يسقط عمودياً وراء قفاه، وذهب إلى فضل الله عثمان وطرق باب الحجرة الأرضيّة التي يعرفها وجلس أمام أمّ روايح التي تجلس على الكنبة الأخرى بجلبابها البيتي وساقها المطويّة البيضاء. لم يطالبها بشيء من الأقساط ولكنّه طلب منها أن توافق على زواج سليمان ابنه على روايح ابنتها، وأخبرها أنّه اشترى حجرة النوم وأنّ عليها منذ هذه اللحظة أن لا تحمل همّاً. وفي اليوم التالي كانت روايح النحيلة أمّ الحاجب المقوس والعيون الكحيلة الضاحكة قد غادرت فضل الله عثمان وذهبت إلى السوق بعد أن أخذها سليمان الكبير زوجة لابنه سليمان الصغير. وفي اليوم التالي فتح سليمان دكّانه متأخّراً. ظلّ يفعل ذلك لمدّة أسبوع أو عشرة أيّام ثمّ بات لا يُرى إلاّ

نادراً. وفي هذه المرَّات القليلة كان يجلس ساهماً وقد ساءت حالته الصحيّة تماماً. وفي نهاية الشهر على وجه التقريب مات، وتلقَّى سليمان الصغير العزاء وهو يقف محمرّ العينين من البكاء ومزهوّاً عند مدخل السرادق الكبير الذي تصدَّره فضيلة الشيخ الطبلاوي. كان يرتدي قميصاً بجيوب على الصدر وبنطلوناً رجل الفيل وحذاء بنعل سميك ومزركش من الكاوتش المستورد وفي إصبع يده اليمنى خاتم من الذهب البندقي عيار أربعة وعشرين. وعندما انفضَّ كلّ شيء خلّف أباه في الدكّان. وكان من عادته أن لا يجلس في الداخل مثل أبيه ولكن يخرج المقعد في شارع السوق الذي هو شارع مراد ويجلس أمام الواجهة العريضة التي تباعدت فيها الحلى المعلّقة في لوحات القطيفة السوداء والحمراء ويشرب البوري ويتفرَّج على الستّات ولا يدخل إلاَّ عندما تأتي الزبائن. وقد عاد اليوم مبكِّراً لكي يتفرَّج على المباراة. ولم تكن روايح قد عادت حتّى الآن، وقام ونزل واتجه إلى فضل الله عثمان ودخل بيت أمّ شربات والتقى بأمّ روايح وقال لها إنّه سليمان بن سليمان الصايغ زوج ابنتها روايح وضحكت أم روايح وقالت: «عارفاك». وسألها عن روايح وقالت إنّها لا تعرف. وعندما قام واقفاً طلبت منه أن يطمئنها عندما يجدها وقال إنّه سوف يذهب للبحث عنها وعاد إلى شارع السوق وطلع السلّم ودخل الشقّة ولكنّه لم يجدها وقال بينه وبين نفسه إنَّ روايح هربت. وكان الخجل يمنعه من أن يسأل أحداً وذهب إلى المقهى وفكَّر أن ينزل البلد ويدخل سينما ولكنّه ظلَّ جالساً حتّى أتى به قاسم أفندي النظّاراتي إلى كشك الخواجة لكي يشرب البيرة حتّى انتصفت الزجاجة وشعر سليمان

الصغير بشيء من الصداع يتجمَّع في مقدمة رأسه، وبدأ يفكِّر في القيام والذهاب إلى البيت مرَّة أخرى ليرى إن كان سيجد روايح أم لا. ولكن قاسم أفندي أخرج الجريدة وراح يقرأ حكاية الخواجة الإيطالي متوجِّهاً بذلك إلى الخواجة الذي كان يعطيه ظهره وسأله إن كان عنده علم بالموضوع الذي يقول وأراد أن يعيد القراءة مرّة ثانية ولكن الخواجة استوقفه بالإشارة من يده وهو يقول بسخرية: «إيَّاك فاكر نفسك الوحيد اللّي بيعرف يقرأ».

«العفو. أنا بس كنت عاوز اطمئن. أنت عارف طبعاً أنَّ أمرك يهمّني. الحقيقة هو يهمّنا كلّنا، بس يهمّني أنا أكثر شويّة».

«باقول إيه يا عمّ قاسم، اعمل معروف، وخلّيك مع الراجل اللّي قاعد معاك».

وترك الخواجة الكشك والمكان وذهب ناحية حلاوة بائعة البرتقال. وضحك قاسم أفندي وهو يغلق الجريدة ويتأمّل صفحتها الأولى: «يا سلام. ونعم الناس. شايف السلام يا سليمان؟».

والتفت سليمان ونظر إلى العناوين الحمراء، وهزَّ رأسه كمن يوافق على ما يسمع. وقال قاسم أفندي: «شوف، أنا طول عمري وأنا باقرا الأهرام. الحقيقة أطول من طول عمري، لأنّ أبويا الله يرحمه كان بيقراه قبل أنا ما اتولد. يومياً. أبو حسنة بيّاعة الجرايد دي، كان اسمه ملّيم. كان عيِّل أيامها. سريح، كان يوميّاً على الله يجيب الأهرام عندنا. أيوه. أنا لمّا كرهت المدرسة وغويت تصليح النظّارات، أبويا طلّق أمّي وطردنا من البيت لأنّه كان عاوزني أتعلّم.

ولمّا سمع من ملّيم أن أنا باشتري الأهرام كلّ يوم، جابني وامتحنيّ قدّام حسن صاحب المكتبة اللّي ورانا دي على طول. أوّل ما قريت الصفحة الأولى من الأهرام الصادر في نفس اليوم، راح واخدني وقايم على الحديري المأذون ورجّع أمّي إلى عصمته فوراً. في نفس اليوم كنّا بايتين في البيت. أصل أبويا كان يحترم الأهرام واللّي بيقروا الأهرام قوي. زيّ أبوه بالظبط. بس للأسف، مفيش حد في عيالي بيقراه أبداً. ساعات كده البنت الصغيرة تاخده مني تشوف البرامج وترجعه على طول. مع أنه في الحقيقة كويّس. ولو أنّه زيّ ما تقول كده بيحبّ يتكي على الحاجة شوية. شوف حضرتك. وأشار بإصبعه إلى الكلمات المكتوبة «أدي الرئيس، وأدي الحرب، وأدي السلام. والحرب، والسلام، والرئيس. والسلام، والرئيس، والحرب. وأدي كمان السلام. بالزمة ده كلام؟» وطوى الجريدة: «يا سليمان؟».

وابتسم سليمان مسروراً. كانت الزجاجة قد فرغت ولم يعد متعجّلاً على القيام والذهاب إلى البيت. وكان الخواجة قد عاد. وقال قاسم أفندي بصوته المتمهّل الهادئ وهو يعيد الجريدة إلى جيبه، ويضع ساقاً على ساق: «لكن الحقيقة لو سألتني أرجع وأقولك إنّ الأهرام معذور، ولازم يعيد ويزيد في الكلام، ليه؟ لأن فيه ناس بعيد عنك بهايم. ناس ماتفهمش من قريب أبداً، ولازم تسحب الواحد من ودنه وتفضل تقول في الحاجة وتعيد وتقول وتعيد لغاية ما ربّنا يفتح عليه. وساعات ربّنا يفتح عليه وبرضه مايفهمش. يعني عندك راجل زي الخواجه الإيطالي ده. موضوعه مش عاوز تفكير، لأنّه واضح زيّ الشمس، خواجه عقوده جاهزة وسليمة أربعة

وعشرين قـراط. واحنا النهـارده في سيادة قـانون. يبقى لازم يـاخـد الأرض. الأرض اللّي انت شايفهـا دي كلّها. وبعـدين إيه، زعـلان من البيوت والدكاكين والأكشاك اللّي موجودة دي». وربت بيـده على طرف الجريدة العالي من جيب سترته: «هو قايـل كده في الجـورنال. يعني أوَّل مـا يكسب القضيّة المستعجلة قـول على البيـوت والقهـاوي وبتوع اللبن والبرتقال والحديـد السلام. كلّه كلّه. الجـامع والأسـطى بـدوي والمكتبة والبحـر والشاويش عبـد الحميـد والعصـير والأكشـاك بتاعة البيرة والكبدة، كلّه، أيّ كشـك بتاع بـيرة أو بتاع سمـين لازم يتشال. مش حيخلّي حاجه أبداً، الله؟ أرضه بقى. يبنيهـا، يهدّهـا، يعملها خرابة، يفرّقها، هو حرّ».

ونـظر إلى الخواجـة وابتسم. وتناول سيجـارة من سليـمان أشعلهـا وقال: «يا ترى نقوم برضه نـاخد القـزازتين، ولاّ نـاوي تتكرَّم علينـا وتجيبهم، والاّ إيه الحكاية بالظبط؟ نفهم يعني».

فتح الخواجة الثلاّجة وأحضر الزجاجتين وهو يقول: «يبقوا ستة». وضع قاسم أفندي زجاجته تحت مقعده، ثمَّ اعتـدل وقال «الله. إيـه ستّـة، والاّ إيه تمـانيـة والاّ ألف. الكـلام ده عيب وأنت عـارف أنـه عيب. وبعـدين أنت ازاي تتكلّم معايـا باللهجـة دي، تكونش فـاكر نفسك خواجه بصحيح؟».

«أيوه خواجه».

«كداب».

«جرى إيه يا عمّ قاسم؟»

«أيوه كداب. وأنا أقولك أنت كداب ليه. أوّلاً أنت لابس طاقيّة والخواجه لو قطعت رقبته لا يمكن يلبس طاقيّة، لازم يلبس برنيطة. ثانياً أنت بتتكلّم عربي، ويا ريت عربي، دانت بتتكلّم بلدي. والخواجه لا يمكن يتكلّم بلدي، الخواجه لازم يتكلّم إنجليزي أو يتكلّم فرنساوي أو جريجي. يعني لازم يرطن والسلام. وأنت بقى زيّ ما أنت راسي، ولا اسمك جاك ولا جورج ولا حتى هيديكوتي ولا بتعرف تعامل الزباين ولا بتعرف حاجه خالص، تبقى خواجه إزاي؟ تقدر تقولّلي؟».

«يا عمّ قاسم الله لا يسيئك».

«والنبي قمر وأنت زعلان. تجوّزه يا أستاذ سليمان؟ لا، ده أنت متجوِّز. على العموم ما تزعلش. أنا حاخدمك وأقولك تبقى خواجه ازاي».

«يا عمّ قاسم».

«أنت خواجه علشان أنا وغيري بنقولك يا خواجه».

«كمان؟»

«طبعاً. احنا ممكن نقولّك يا عبده، تعالَ يا عبده، روح يا عبده».

«وبعدين بقى في الليلة اللِّي مش فايته دي».

«زيّ ما بقولك كده. وممكن نسمّيك مصطفى أو ألمظ أو أي حاجه تعجبنا. وممكن نسمِّيك اسم واحد على طول وممكن نغيِّره كل أسبوع أو نغيِّره يوم بعد يوم. براحتنا قوي يعني. وبعدين ده شيء

قانوني. أيوه. القانون قال كل واحد يسمّي التاني زيّ ما هو عاوز. لا أنت تقدر تجبرني أقولك يا خواجه ولا حكومتك نفسها تقدر تجبرني على شيء من هذا النوع».

وضحك قاسم أفندي ومسح فمه بظهر يده من أثر البيرة وقال: «بس أفتكر ما أقدرش أسمّيك زينب لأن القانون مافيهش زينب. لكن أوعدك أنّي لازم أتأكّد من الحكاية دي. نسأل الأستاذ يحيى نجم المستشار في مجلس الدولة. أمّال أنت فاهم إيه؟ القانون ده كلّه بلاوي ربّنا يكفيك شرّه». كان الخواجه يتطلّع إليه غاضباً. وقال قاسم أفندي: «أنا معاك أنّها مشكلة. بس أنا بقى حاخدمك وأقولّك تخرج منها ازاي. شوف يا سيدي، أي واحد ينادي عليك باسم مش على مزاجك، ما تردّش عليه، هو ده الحلّ الوحيد». وفكّر قليلاً: «بس ده حلّ صعب شوية. لأنّك إذا ماردّتش على الناس، لا حتبيع ولا حتشتري. يعني باختصار كده حيتخرب بيتك. لا: هي مشكلة فعلاً. معاك حقّ».

ومال الخواجه بنصفه الأعلى داخل فتحة الكشك الأماميّة وأخذ النقود الورقيّة، وضعها في جيب الصديري وهو يرغي بالكلام واستدار بقامته الطويلة وترك المكان كلّه وذهب إلى المقهى، وجلس عند المدخل ووضع ساقاً على ساق وأخرج علبة سجائره ومال برأسه إلى الداخل لكي يرى عبد الله القهوجي فرأى الهرم الكبير وحيّاه لأنّه كان يظنّه بالسجن حيث أخذته الحكومة أمس من على المقهى، وقال: «الحمد لله على السلامة».

وقال الهرم: «تعيش يا خواجة».

وطلب فنجاناً من القهوة. كان الهرم الكبير مسروراً لأنّهم أخذوه بالأمس ولم يكن يحمل شيئاً مثل كلّ المرّات التي أخذوه فيها. كانوا يرقبونه ويهجمون على البيت ويفتّشونه ولا يجدون شيئاً لأنّ الهرم كان يذهب مع صديق المقهى الأسطى عبده السائق في السفارة ويجلس عنده في البيت مع زوجته فتحيّة التي لا تخجل. وكان الأسطى رجلاً طيِّباً وقليل الكلام ولا يكفّ عن الابتسام أو شرب الحشيش ورأى فتحيّة وتزوّجها ثمّ لاحظ أنّها جريئة وتشاغب طوب الأرض وتتاجر في أيّ شيء تطوله يداها. وفي آخر الليل كان الأسطى يأخذ الهرم معه إلى البيت ويجلسان على الكليم أمام السرير وفتحيّة تضع الفحم على النار وتعدّ الشاي فوق كرسي الحمّام ويقوم الأسطى بإحضار الجوزة والهرم الكبير يخدم قطع الحشيش بأسنانه ويدوّرها ويضعها في صف طويل على طرف جلبابه الأبيض ومن وراء الدخان ينظر إلى فتحيّة نظرات تدلّ على العواطف المكبوتة وفتحيّة تراه وتنظر إليه نظرات تعبّر عن الفهم وتكتفي بأن تدخّن السجاير أو تشرب أكواب البيرة وبعد ذلك شاركتهم في تدخين الحشيش ولكن على الخفيف. وعندما دخّنوا كثيراً مال الأسطى عبده على جنبه غير قادر على الحركة وقام الهرم بصعوبة وقال إنّه ذاهب وظلّت فتحيّة جالسة في مكانها على الكليم حتّى قام الأسطى وذهب إلى المرحاض لكي يتقيّأ لعلّه يفيق فوجد الهرم الكبير مختبئاً داخل المرحاض. ومدّ يده وأمسك برقبته جيّداً وسأله أليس من الواجب أن يكون رجلاً ويكفّ عن هذه الحركات المكشوفة وصاح أنّه يعرف كلّ شيء والهرم الكبير خنقه هو الآخر وقال له وهما يتمايلان داخل المرحاض: «احنا بنحبّ بعض على

سنّة الله ورسوله» وخرج الاثنان ونزلا السلّم وكلٌّ منهما يمسك بخناق زميله وخرجا إلى حارة توكل ورقدا على بعضهما وكلّ واحد حاول يخرم عين الثاني. وفي اليوم التالي أفاقت فتحيّة وهاجت وضربت الأسطى بخشبة الغلية حتّى جرى منها إلى الحارة وألقت وراءه بثيابه وهي تصوِّت: «يادهوتي»، وتقول إنّه يأتي بالناس لكي يحشِّشوا في البيت والأسطى لمّ هدومه على صدره ورفع رأسه ونظر إليها وهي تتدلّى من النافذة ورمى عليها يمين الطلاق. والهرم الكبير تفاوض معها من بعيد وأصبح يذهب إليها في السرّ بعد أن تنام الحارة كلّها ويترك عندها الكيس والميزان ويدفع نظير ذلك ثلاثة جنيهات كلّ يوم. ومع أنّ ضابط المباحث كان يأخذه من المقهى ويرافقه إلى بيته القديم ويفتّشه ولا يجد شيئاً فإنّه كان يذهب به إلى المركز ويهدّده لكي يكفّ عن البيع والهرم الكبير يقسم له أنّه تاب منذ ثلاثة شهور أو أربعة ولكن المرشدين كانوا يؤكّدون أنّه لا يكفّ أبداً عن البيع. ولم يجد ضابط المباحث أمامه إلاّ أن يأتي له بقضيّة أو قضيّتين والهرم يعده بأنّه سوف يبذل جهده ثمّ لا يفعل لأنّه لا يرضى أن يوقع بأيّ بني آدم في أيدي الحكومة: «كلّه إلاّ كده». وفي آخر مرّة سأله الضابط عن القضيّة والهرم قال إنّه منذ أن كفّ عن بيع المخدّرات وتاب لم يعد يختلط بأحد ولا يعرف من الذي يبيع ومن الذي لا يبيع: «لكن أنا عشمي في ربّنا كبير وإن شاء الله حاتفرج». والضابط أخبره أنّه إذا لم يكفّ عن البيع ويأتي بالقضيّة التي اتفقا عليها فإنّه سوف يلفّق له واحدة يأخذ فيها سنتين على الأقلّ. وعندما أخذه بالأمس أوقفه أمام المخبرين وأخرج من درج المكتب منديلاً به لفافات صغيرة من

الحشيش وأخرج مطواة قرن غزال من درج آخر وراح يقول بصوت مسموع وهو يملي المحضر إنّهم في الساعة التاسعة مساء أمسكوا الهرم الكبير وهو يجلس على مقهى عوض الله من الخارج ويبيع المواد المخدّرة وأنّهم أخرجوا من جيب الصديري الأيمن منديلاً كبيراً أبيض به عشر قطع من مادّة الحشيش المجهّزة للبيع والملفوفة في ورق السوليفان الأزرق. وأمّا المطواة فقد كانت في جيب جلبابه الجانبي (السيالة) من الجانب اليسرى. وأدرك الهرم الكبير أنّه ضاع. ولكنّه تمكّن أثناء الليل وهو في الحجز أن يعقد اتفاقاً ويغيّر ملابسه مع أحد الأولاد المحجوزين والعائدين إلى بيوتهم وقد ارتدى فانلّة (جيل) نصف كمّ وبنطلون (كاوبوي) قصير وضيّق عليه بسبب سرواله الداخلي الكبير. وعندما انتهى وكيل النيابة من الاطّلاع على المضبوطات والمحضر نظر إليه باستغراب وقال:

«أمّال فين الهدوم؟»

«هدوم إيه يا بيه؟»

«الهدوم اللّي في المحضر، الجلابيّة والصديري؟»

«وأنا أعرف منين يا بيه؟ هم مسكوني زيّ ما أنا كده». وفتّشوا الحجز ونظروا إلى ثياب المحجوزين وسألوا نوبتجيّة الليل وضربوه وقلبوا الدنيا ولكنّهم لم يجدوا شيئاً. وأفرج وكيل النيابة عنه. وظلّ الهرم الكبير نائماً بقيّة النهار في بيت زوجته القديمة ثمّ قام من النوم وجاء إلى المقهى فلم يهدأ بال عبد الله ولم يتركه يغيب عن عينيه. راقبه عندما اقترب من المعلّم عطيّة، وتبادل معه بضع كلمات قليلة لم يلحق عبد الله أن يسمعها. وخرج وراءه عندما رآه يجلس مع

الخواجه بالخارج وحاول أن يسمع ما يقولان ولكنَّهما لم يتكلَّما. وأسرع إلى الزقاق الذي يفصل بين المقهى والبدروم عندما رآه يتَّجه إلى دكان المعلِّم صبحي وجلس مع الخراف والديوك الروميّة عند نافـذة المكتب المفتـوحة عـلى سطح الأرض. ورأى الهـرم الكبـير وهـو يمـرّ من بـين الأقفاص ويقف أمام المعلِّم صبحي الذي كان رأسه مائلاً على صدره ويفكِّر في شيء. وسمع عبد الله صوت الهرم الكبير وهو يقول:

«مساء الخير».

وفوجئ المعلِّم صبحي لأنَّه كان يظنّ الهرم بالسجن، وقال:

- «الله، الحمد لله على السلامة».

- «الله يسلِّمك».

- «شاي ولا قهوة؟»

- «لا، فلوس».

- «فلوس إيه؟»

- «المتين جينه الباقين من حقّ البيت».

- «إيه الكلام ده يا هرم؟ طيِّب يا أخي اصبر لمَّـا تلاقيني استلمتـه على الأقل».

- «ما انت استلمته».

- «وعطية؟ والقهوة؟»

«دي حكاية بينك وبين عـطية. إحنـا اتفاقنـا كان الشيـخ حسني، والشيخ باع وأنا اشتريت، وأنـا بعت وأنت اشتريت. يعني إحنـا كده براءة. دورنا انتهى، خلاص».

«باع إيه وانت اشتريت إيه، هو انت دفعت فلوس يا هرم؟»

«أيـوه دفعت زفت. وبعـدين أنـا خـارج من السجن وعنـدي مصاريف وقضيّة وشغلانة، وإلّا يعني لازم نقلّل عقلنا ونفرج علينا الناس؟ وخلّيها تبقى قضيّة بالمرّة».

«إيه الكلام ده يا هرم؟»

«زيّ ما بقولّك كده».

«يا راجل عيب».

«أعملّك إيه بس ما أنت عاوز تزعّلني منك».

«اتفضّل يا سيدي». ومال وفتح الخزانة الحديديّة:

- «إحنا مش متأخرين. اتفضّل».

«أيـوه. عليـك نـور. واتصرّف أنت بقى مـع عـطيـه. سـلام عليكم».

وظلّ عبد الله جالساً مع الخراف والـديوك الـروميّة غـير قادر عـلى القيـام. بـين الحـين والآخـر كـان يـظنّـه الحلم. الآن فقط أدرك أن العمليّـة جدّ وأنّ المـوضوع انتهى واستـولى عليه الغمّ نهائيّـاً. وخرج الهرم الكبير وعبر الطريق واشـترى علبتين سجـاير من الجـاويش عبد الحميد وعبد الله مازال جالساً في مكانـه. وأخذ الهـرم طريقـه مسرعاً إلى شارع مراد ومنه إلى فضل الله عثمان وراقب الطريق من هنـا ومن هناك وذهب من قطر الندى إلى حارة تـوكل القصـيرة المظلمـة ودخل البيت الذي يسدّها وتسلّل من أمام الحجرة الأرضيّة وعبـد الله مازال جالساً في مكانه. وصعد الدرج دون أن يصدر عن قدميـه أي صوت ومشى أمام المرحاض في الجزء غير المسقوف من السقف ونقر على باب الحجرة المغلقة ثلاث نقرات ثمّ نقرة واحدة وسمـع المزلاج وهـو يفتح

وأمسك مقبض الباب وأداره ودخل، وعبد الله مازال يجلس في مكانه إلى جوار النافذة المفتوحة ويشعر بالألم في ساقيه، ولكنّه خشي أن يظنّه الناس جالساً يتبرَّز بين الخراف والديوك الروميّة فقام واقفاً وغادر الزقاق إلى منتصف الطريق وظلَّ واقفاً لفترة من الوقت ثمَّ أسرع إلى الأمير ومال عليه وحكى له ما رأى ثمّ اتّجه إلى الجاويش عبد الحميد لكي يخبره فوجده يتطلّع ناحية الخواجه صامتاً كما رأى مقعداً خالياً إلى جواره فجلس عليه وهو يقول لنفسه: «لزومه إيه؟ ما هو شايف وعارف». وتطلّع هو الآخر إلى الخواجة الذي ترك الكشك وجلس وحيداً عند المدخل مع أنه شرب القهوة. وجاء سليمان الصغير ودفع له الحساب ومشى يتطوَّح في شارع السوق لأنّه كان مسروراً. وكان قاسم أفندي قد انتهز فرصة ذهاب الخواجة إلى المقهى، وقام واقفاً بقامته القصيرة النحيلة وقال وهو يرفع إصبعه ويتمايل: «أنا باستأذنك يا أستاذ سليمان، أربع دقايق بالعدد، لغاية دورة الميّة وراجع حالاً».
ونزل بحرص من على الرصيف وأسرع مبتعداً. ونظر سليمان الصغير ورأى قاسم أفندي وهو يبتعد وانتهز فرصة ابتعاده وشرب ما تبقّى في زجاجته الثالثة وذهب إلى المقهى ودفع حساب عبد الله وحساب الخواجه ولم يشعر بنفسه إلاّ وقد دخل البيت وصعد السلّم ووقف أمام باب الشقّة ولاحظ أنّها مظلمة، وبحث عن الكبريت في جيبه ولكنّه لم يجده وأخرج المفتاح، وعندما كان يبحث عن الثقب خاف فجأة ونزل وهو يكاد يقع وخرج إلى البرد مرّة أخرى ولكنّه شعر بالارتياح وظلَّ يمشي هنا وهناك حتّى ركبه التعب فذهب إلى فضل الله عثمان عن طريق قطر الندى واقترب من بيت أمّ شربات ونظر بجانب

عينيه وهو يسير ورأى نافذة أمّ روايح مغلقة ومظلمة. وقال إنّها نامت، وحتّى لو كانت النافذة مفتوحة فإنّه لا يستطيع أن يخبط على الباب ويسألها عن روايح لأنّها سوف تعرف أنّه سكران: «هي مفيهاش حاجة، بس جايز الواحد يلخبط في الكلام». وانتبه ليجد نفسه على مقربة من جابر البقّال الذي كان يميل بنصفه الأعلى خارج فتحة الدكّان ويتحدّث مع فاروق وشوقي وهما يقفان أمامه. وعندما أدرك أنّهم رأوه خشي أن يعود من حيث جاء حتّى لا يفهموا أنّه أتى لكي يبحث عن روايح التي اختفت أو أيّ شيء من هذا القبيل. وقال إنّ أحسن حلّ هو أن يستمرّ في طريقه كما هو ويشتري علبة سجاير ثمّ يعود. وتوقّف جابر عن الكلام واعتدل فاروق وقال: «تعرف مين اللّي جاي ده؟».

وأسرع شوقي قائلاً: «تصدّق؟ ده الواد سليمان الصايغ».

- «وباين عليه سكران».

- «بجدّ؟».

- «آه والنعمة. أنا شايفه بيشرب بيرة عند الخواجة».

- «شوف الجبانة مع أنه مدفعش نصيبه في المعزى».

كان سليمان الصغير يميل إلى القصر ويضع على وسطه الممتلئ حزاماً عريضاً له حلقة معدنيّة مستديرة. قال وهو يرفع يده إلى مستوى ذقنه: «مساء الخير يا رجّالة». وعندما ردّوا عليه استند بمرفقه على الطاولة الرخاميّة وأخذ يتأمّل أرفف البضائع، وسأل إن كانت توجد سجاير كليوباترا وقال جابر: «عندنا».

وقال شوقي: «وعندنا بيرة كمان».

وقال فاروق: «اتفضّل أنت استريح».

وأخذه من يده إلى مدخل المخزن المظلم المواجه للدكّان، وأجلسه على أحد صناديق الكازوزة الفارغة وهو يربت عليه ويقول: «استريح أنت وأنا حاجيب لك السجاير».

وقال سليمان وهو يحاول إدخال يده في جيبه: «طيِّب خد الفلوس».

وقال شوقي: «يا راجل عيب. أنت كده بتشتمنا. افتح لك كمان قزازتين بيرة؟ هات يا جابر قزازتين ولاّ تلاتة». وفتح جابر ثلاث زجاجات من البيرة حملها فاروق وجلس أمام سليمان ووضع الزجاجات على الأرض. وأحضر شوقي ورقة الزيتون الأسود والجبن الرومي وأصابع العيش وانضمّ إليهما وهو يقول: «لا مؤاخذة بقى مفيش كبّاية».

ورفع سليمان يده قليلاً وتركها تسقط وهو يقول: «إحنا طول عمرنا ناس ولاد بلد. أنا لسّه شارب مع قاسم أفندي ستّ قزايز من غير كبايّة. البيرة دي إحنا ممكن نشربها عادي خالص من غير أيّ حاجة من الحاجات اللّي أنت شايفها دي كلّها».

وأمّن فاروق على كلامه وأخبر شوقي أنّ سليمان من العيال «الجدعان قوي يعني». وراحوا يشربون البيرة. وكان قاسم أفندي بعد أن زاغ من سليمان قد أخذ دورة كبيرة لكي يعطيه فرصة يدفع فيها حساب البيرة، وجاء إلى فضل الله عثمان عن طريق حارة أمير الجيوش ووقف أمام الدكّان وهمس قائلاً:

- «يا مساء الخير».
- «مساء الفلّ يا عمّ قاسم».
- «إيه رأيك يا جابر؟ أنا كويِّس. كويِّس قوي يعني».
- «طول عمرك وأنت كويِّس يا عمّ قاسم».
- «طيِّب مادام أنا كويِّس كده، تحبّ ناخد كمان قزازة؟ قزازة واحدة ظريفة نشربها واحنا بناخد وندّي مع بعض في الكلام؟ وإلاّ مادام أنا كويّس كده مفيش داعي، وإلاّ أنت رأيك إيه؟».
- «هي في الحقيقة حاجة تلخبط».
- «تبقى لازم عاوزني أطلع على القهوة، آخد فنجان القهوة على الريحة وسيجارة فلوريدا محترمة، وأروح أعزّي، وأنام. والنبي تقول يا جابر». وعندما انتبه إلى الحركة خلفه عند مدخل المخزن التفت إلى شوقي وفاروق وسليمان واكتفى بأن رأى شوقي وفاروق واعتدل إلى جابر وقال: «سلام عليكم»، وأخذ طريقه عائداً إلى المقهى ورأى عبد الله يجلس على كرسي بجوار الجاويش عبد الحميد وقال: «الله. أنت بقيت زبون؟» والتفت ورأى الخواجة فجلس إلى جواره دون كلام أو سلام وصفّق بيديه وقال: «خلّيها سادة يا عبد الله».

وقام عبد الله وترك الجاويش عبد الحميد يتطلّع ناحية الخواجة ويفكّر بأنّ المقهى لو حدث له أيّ شيء فسوف تكون نكبة. إنّه يجلس هنا من أجل أصدقائه من الزبائن لأنّ بقيّة الناس تشتري من الخواجة. وكانت مبيعات الجاويش قد زادت في الفترة الأخيرة لأنّ الخواجة كان محروماً من تموين الدخّان العربي لمدة ستّة شهور بأمر المحكمة لأنّه ضبط وهو يبيع علبة كليوباترا أزيد من التسعيرة. ولكن

الجاويش لم يعتبر نفسه أبداً بائعاً للسجاير. إنّه يجلس هنا في حدود المقهى وعلى مقعده ويشرب الشاي كأيّ زبون مع أصدقائه القدامى الذين يتردّدون على المكان وينقلون مقاعدهم ويجلسون معه وإن لم يتبادلوا أيّ كلام. وإذا أغلق المقهى وظلّ يجلس وحده على الرصيف دون أن يكونوا معه ويبيع فإنّه لن يقبل ذلك أبداً. وتمنّى لو أنّه لم يعرفهم أو لو جلسوا جميعاً في مكان آخر ليس عرضة للتغيير ثمّ تمنّى لو أنّه لم يأت إلى إمبابة أو يتعرّف عليهم من أصله. لقد مضى على ذلك سنوات طويلة، بعد إجازة زواجه وعودته إلى المركز. لأنّه لاحظ أنّ عروسه كريمة تدخل المرحاض وتظلّ به حوالي ساعة أو أكثر. كان يقوم من نومه كعادته قبل الزواج لكي يذهب إلى المرحاض فيجدها قد سبقته إلى هناك، ويظلّ يروح ويأتي بين الحجرة والصالة وهو يشعر بالوجع أسفل بطنه ثمّ يشغل نفسه بأنّ يرتدي الجوارب والحذاء الميري ويحلق ذقنه وهو يحاول أن يضبط نفسه ولا يعرف كيف يستقرّ أمام المرآة.

وعندما كان يخشى أنّ يتأخّر عن العمل، كان يخلع الجلباب ويلقي به على الحصيرة المفروشة أمام السرير ذي الأعمدة الطويلة السوداء والداير المشجّر ويلبس البدلة الشتويّة ويسرع لكي يذهب إلى المركز ويستخدم المرحاض الميري. لكنّ الشيء الذي خلّف الحزن في نفسه هو ما لاحظه بعد ذلك. كان يقوم من النوم ويلبس القبقاب ويخرج إلى الصالة حيث يراها، وقبل أن يقول: «صباح الخير» تكون قد انتهت من عملها الآن وسبقته إلى هناك. وكم فكّر عبد الحميد وقال إنّه من غير المعقول أنّ تتعمّد كريمة الجميلة أن تفعل ذلك. ولكنّه لم

يجد تفسيراً لهذا التوقيت الذي تكرّر أكثر من مرّة وقال إنَّ من يتعمَّد ذلك لا يمكن أن يكون بني آدم أو عنده إحساس. ولكن كريمة؟ كان يراها عندما تخرج ويرى وجهها الحلو الناعم وعيونها والابتسامة الطيّبة المجهدة ويستغرب. وفي كلِّ مرّة من المرّات القليلة التي كانت تخرج فيها وهو مايزال موجوداً في البيت، لم يكن يملك إلاّ أن يسير متمهِّلاً وهو يوشك على الانهيار، لأنّه كان يخجل من الذهاب أمامها إلى المرحاض. لم يجد الجرأة أبداً لكي يفاتحها في هذا الموضوع أو يشير إليه أمام أيّ مخلوق. وأدرك أنّه لن يستطيع أن يلفت نظرها أبداً بأيّ صورة من الصور، وطوى صدره على سرّه ووقعت الكراهية في قلبه من ناحيتها. وحوّل نفسه إلى العمل في ورديّة اللّيل. ينام بالنهار ثمَّ يذهب إلى المركز ليتسلَّم البندقيّة ويخرج إلى الدرك. وقال الجاويش إنَّها كانت أجمل الأيّام ولو أنَّه استطاع فقط أن يتوقَّع ما يمكن أن يحدث لما فاجأه شيء. لقد كان هو الوحيد الذي رأى عمليّة الاعتداء على المعلّم عطية لأنّه كان يجلس هنا يكشف المقهى ويكشف الزقاق ويكشف الدكّان. رآه وهو ينزل على ركبتيه ويستند على الجدار وقد أمسك جنبه من الخلف، وأوشك الجاويش أن يقوم لكنَّه لاحظ أنَّ المعلّم عطية يسرع بالوقوف ويعدّل من وضع ثيابه ويسرع إلى مدخل المقهى ويتحدَّث مع عبد الله بصوت هادئ ثمَّ ينصرف. وعرف أنَّ المعلّم يخفي ما حدث. وعندما ابتعد أشار إلى عبد الله وحكى له ما رأى، ولكنَّ عبد الله قال إنَّ المعلّم كان هناك ولم يلحظ عليه أيّ شيء غريب وأنَّ هذا ليس معقولاً. وابتسم الجاويش لأنَّ عبد الله المسكين تأكّد بعد ذلك ورأى الهرم الكبير وهو ينزل إلى المعلّم

صبحي ويأخذ بقيّة حسابه. والتقت عيناه بعيني الجاويش، وجدهما مفتوحتين عن آخرهما، وارتعد فجأة وخيِّل له أنّه ليس عبد الحميد وقام واقفاً وأسرع إلى المقهى الذي ازدحم ورأى قاسم أفندي وهو يجلس بينهم وقد أمسك بالجريدة مفتوحة وراح يقرأ فيها حكاية ضرب المعلّم عطية بالسكّين وكأنّه يقرأ حكاية مكتوبة مثل حكاية الخواجة الإيطالي. ودهش عبد الله عندما رأى أنّ المقهى كلّه عرف هذه الحكاية ونظر إلى المعلّم عطية فوجده يضحك وهو يلعب في الماركات النحاسيّة داخل الطبق المستدير. لاحظ عبد الله أنّ مزاجه معقول وفكّر أن يتكلّم معه ووقف أمام المنصّة في انتظار القهوة السادة التي طلبها قاسم أفندي وقال: «بقول إيه يا معلّم، أنت عرفت موضوع الخواجة اللّي في الجريدة؟».

وظلّ المعلّم صامتاً لفترة ثمّ قال: «أنت مهتمّ اليومين دول بأخبار الخواجات والّا إيه؟».

ـ «أصله خواجة يهمّنا يا معلّم. ده ناوي ياخد المنطقة كلّها. مش كنت استنّيت شويّة؟».

ـ «أمّا أنت جحش صحيح. تقوللّي إنّه ناوي ياخد المنطقة كلّها، وعاوزني استنّى؟».

وفوجئ عبد الله بأنّ ذلك كلام صحيح، أنّ كلامه هو لم يكن مضبوطاً وشعر بأنّه أفسد كلّ شيء. وقال المعلّم وهو يبتسم: «وبعدين أنت شاغل نفسك ليه؟ ما هو كلّه منّك يا فقر».

والتفت إلى الباشمهندس أحمد عميد المعهد الصناعي وقال:

«صحيح والله يا باشمهندس. صبحي ده منشأه ورقة لوتاريّة بنص فرنك. صاحبنا ده كان بياخد منّي ربع جنيه كلّ يوم، كان بيشتري منّه بخمستاشر قرش ورق يانصيب. وده كلّه علشان أوّل ورقة اشتراها في حياته كسبت جنيه، قبضه تمانين قرش. وبعد كده كلّ سنة وأنت طيّب. صحيح والله. ضيّع فلوسه وشقاه كلّه على ورق اليانصيب لغاية ما اتخرب بيته وبرضه مفيش فايدة. المهمّ. في يوم أنا قاعد، وهو واقف قدّامي زيّ ما هو واقف كده، ودخل الواد منير بتاع اليانصيب معاه ورقة واحدة متبقّية. أدّاها لعبد الله. لكن ده لأنّه فقير ركب دماغه وقال لا يمكن. الواد حاول يدّيها لمحمّد نويتو اللّي كان قاعد مكانك كده بالظبط، برضه ماخدهاش. يقوم يدخل في اللحظة دي صبحي بتاع الفراخ. كان قاعد أيّامها بقفص قدّام القهوة، يمكن ما بقلوش شهر والاّ اتنين. وإيه؟ داخل يشرب. يعني مفيش على باله حاجة أبداً. يقوم يلاقي سي زفت بيقول لا يمكن، راح واخدها حاططها في جيبه ومطلّع من شال الطاقيّة نص فرنك أدّاه للواد وخرج. يشاء السميع العليم أنّ الورقة تكسب البريمو. ميتين جنيه. نفس الورقة. راح واخد الدكان الواطي اللّي هو فيه دلوقت، وأدّيك عارف بقى البيت ده واللّي وراه واللّي وراه وهكذا. طبعاً ده مش اعتراض لأنّ كلّ إنسان بياخد نصيبه. لكنّ المهمّ إيه اللّي حصل بعد كده؟ خد عندك بقى ما هو أدهى، وشوف بقى الفرق ما بين الخلق وبعضها، واحد يلعب مرّة ويكسب جنيه يقبضه وواحد تاني يلعب مرّة يقوم يكسب البريمو يروح مبطّل على طول. أيوه. لعلمك صبحي ما دفعش مليم في ورقة يانصيب بعد كده.

ليه؟ لأنّه فاهم، يبيع آه لكن يشتري؟ لا. والتفت إلى عبد الله وهزّ رأسه باسماً: «خلّي بالك ربّنا عمل كده مخصوص علشان تتعظ، لكن تقول لمين، روح شوف شغلك روح».

وقال الباشمهندس أحمد وهو يبادله الابتسام: «على العموم حصل خير يا معلّم. أصل عبد الله لو كان اشترى الورقة دي، كانت برضه خسرت».

إنّه ينسى دائماً حكاية ورقة اليانصيب هذه ولا يتذكّرها إلاّ إذا ذكّره بها أحدهم. الشيء الذي يذكره دائماً ويحكيه دائماً هو كيف أنّه كان يقف أمام المقهى يوم الخميس، وجاء صبحي وهو يحمل على رأسه قفصاً به ثلاث فرخات وطلب منه أنّ يسمح له ويتركه يجلس أمام المقهى. عبد الله يقول إنّه رحّب به لأنّها مسألة أكل عيش، وأنّ صبحي قعد في الخرابة مكان الكيت كات. كوب الشاي لم يكن يشربه إلاّ عندما مشت أموره وأراد أن يجلس على كرسي من كراسي المقهى. الآن عنده مكتب وخزانة من الحديد. ويقول عبد الله إنّه لم يكن يكرهه. وكان من الممكن أن يظلاّ صديقين لولا أنّ صبحي هو الذي بدأ. لم يعد يطلب الشاي بنفسه وأحضر صبيّاً أرسله ليأخذ شاي المعلّم، ويطلب منه أن يأتي ليأخذ الصينيّة والحساب. ويقول إنّ نفسه صعبت عليه ورفض أن يذهب لإحضار الصينيّة: «قلت يا واد اتقل شويّة لمّا تشوف آخرتها، هي حتروح فين يعني؟» كان ذلك على أمل أن يكون عنده شيء من الدّم ويرسل الصينيّة والحساب ولكن صاحبك لم يفعل، والمعلّم عطية آخر اللّيل لا بدّ وأن يحصي عليه كلّ شيء: الكراسي والأكواب والبواري والصواني والملاعق،

كلّ شيء، والحساب طبعاً، بالمِلّيم. وخرج عبد الله غاضباً واتجه إلى الزقاق ووقف أمام النافذة وصاح منادياً. وخرج له الصبي الجديد وطلب منه الدوران والدخول لأنّ المعلّم يريده، ودخل عبد الله ونزل السلالم التي لم ينزلها أبداً ومشى بين أقفاص الفراخ الحيّة ودخل ووجد المعلّم صبحي يجلس وراء مكتب من الخشب. كان مشغولاً يعدّ كومة من النقود موضوعة وراء الصينيّة والأكواب. ودون أن يتوقّف سأله عن الحساب ومدّ يده وأعطاه: «هي دي». وجلس عبد الله كما يجلس الزبائن ووضع ساقاً على ساق وقال: «هي دي. أنا اللّي قبلت البقشيش. لو كنت رفضت من الأوّل كنت وقّفته عند حدّه. لا كان اشترى البيت وأخد القهوة ولا كان قدر يعمل معلّم ولا كان قدر يعمل حاجة أبداً. صح. هي دي». ونظر عبد الله ورأى المعلّم صبحي وهو يقف في الخارج أمام عربة النقل المحمّلة بالأقفاص، وفكّر أن يقوم ويتكلّم معه، وتصوّر للحظة أنّه من الممكن أن يكون له خاطر عنده: «وجايز أكون ظلمته». وقال لنفسه إنّه لم يكن بينهما مشاكل بيع أو شراء، النزاع بينه وبين المعلّم عطية. ثمّ أدرك أنّه في مصلحة الاثنين. لماذا؟ لأنّ صبحي أمره معروف للناس كلّها، ثمّ إنّه اشترى برخص التراب، وفي أحسن مكان، والمعلّم عطية باع المقهى الذي لا يملكه والهرم هو الذي قبض. كلّهم كسبوا. أمّا هو فماذا يقول؟ عبد الله لا يمكن يشتغل أو يكون قهوجي إلاّ في مقهى عوض الله: «أصل القهوة اللّي أنت فيها دي، بقت قهوة وأنا بقيت قهوجي في وقت واحد، مع بعض. يعني فاكر مثلاً لّما الأمير اتولد، وفاكر لّما أحمد اتولد، وفاكر لّما ابراهيم الكبير اتولد. وفاكر لّما الحاج عوض الله

نفسه كان قدّ ابراهيم وفاكره لّما كان قدّ أحمد، وفاكره لّما كان قدّ الأمير. يا نهار أزرق يا راجل، دانا هنا من قبل حتّى ما افتكر. خلاصة الكلام، مفيش قهوة عوض الله، يبقى مفيش عبد الله».
ماذا يفعل إذن، عندما يقوم من النوم ولا يأتي هنا أين يذهب؟ الله، ومن أين يعيش. وقال إنّ المعلّم عطية كان معذوراً ولا بدّ أن يكلّمه، لأنّ المعلّم عطية كان يمكنه أن يتمسّك بها، ولكنّه باعها. باع المقهى مع أنّه ليس ملكه، وباعني، وباع الناس كلّها: «الله يخرب بيتك يا شيخ». وقام عبد الله واقفاً واقترب من المعلّم صبحي الذي كان يشرف على إنزال حمولة عربة النقل، أراد أنّ يفعل أيّ شيء من أجل المقهى، والناس. لو كان الخواجة ظهر قبل أن يشتري البيت كان من الممكن أن يخوّفه: «أوعى تشتري، الخواجة حياخد كلّ حاجة». ولكنّه الآن لا يستطيع أن يقول له لا تشترِ لأنّه اشترى، ولذلك سوف يطلب منه أن لا يستعجل بل يترك الوضع كما هو عليه دون تغيير، يترك البيت كما هو والمقهى كما هو حتّى تنتهي الحكومة من نظر القضية: «أنا طبعاً باقول الكلام ده للمصلحة العموميّة. أنا يا عمّ لا ليّه في التور ولا في الطحين. أنا بس خايف إنّك تهدّ وتبني وتكلّف وبعدين الخواجة يكسب تبقى حكاية. حكاية كبيرة قوي».

ولكنّ المعلّم الذي كان يقف أمام الميزان القبّاني ويقيّد وزن كلّ قفص في النوتة لم يردّ عليه. واقترب منه أحد الصبيان الطوال الذين يعملون وأخذه من كتفه وأبعده دون رفق وهو يقول: «مش خايف العربيّة تجيب مارش ديل، والدوبل ياكلك؟».

وقال عبد الله وهو ينظر ناحية المعلّم صبحي: «نزّل ايدك، عيب».

ولكنّ صبحيّ المعلّم الطويل دفعه مرّة أخرى وقال إنّه إذا كان يريد أن يموت فليذهب لكي يموت بعيداً عنهم. وجاء المعلّم عطية وهو يعرج ووقف في مدخل المقهى وسأل عبد الله إن كان قد أصبح فتوّة: «ولّا إيه الحكاية؟» كلّ هذا والمعلّم صبحي لم يرفع رأسه ولم يلتفت. «صحيح» قال عبد الله لنفسه: «الغدر لّما حكم صبح الأمان بقشيش، والندل لّما احتكم يقدر ولا يعفيش». صحيح. طول عمرك وأنت غلبان يا عبد الله، وأدار وجهه لكي يدخل إلى المقهى وحينئذ فوجئ بالشيخ حسني يقف أمامه غارقاً في الماء والوحل، ورأى المعلّم رمضان يندفع من داخل المقهى صائحاً: «يا نهار أغبر، إيه ده؟» وقام قاسم أفندي واقفاً، وكذلك فعل الأسطى سيّد طِلِب، وعبد الخالق الحانوتي والأسطى قدري الإنجليزي والموجودون. العمّ عمران نفسه رفع رأسه عالياً وحاول أن يرى. كان الشيخ حسني يقف في مدخل المقهى مرتعش الساقين وقد كوّن تحت قدميه بركة من الماء وقال: «أنتم بتبصّوا كده ليه؟».

وردّ قاسم أفندي: «معلش يا مولانا، أصلهم ما شافوش واحد عرقان قبل كده. أنت لازم كنت بتجري».

واتّجه الشيخ من فوره إلى الركن الداخلي بعد أن تعمّد الاحتكاك بالمعلّم رمضان وبقّع له الجلباب. وعندما قاموا برفقة الأسطى قدري الإنجليزي لكي يبدأوا ليلة العزاء لم يقم معهم. كذلك تشاغل العمّ عمران. وقبل أن يبدأ الشيخ حمادة الأبيض في تلاوة الربع الأوّل،

أرسلوا في طلب الولد فاروق لكي يفتح لهم الماكينة، وراحوا يواصلون الحديث عن الخواجة وأودة هانم باشا والكيت كات والمعلّم صبحي. وقال قاسم أفندي وهو يمسك الجريدة المطوية إنّ الخواجة لو كسب القضيّة فإنّ المعلّم سوف يصبح في خبر كان. وكان الأسطى قدري الإنجليزي قد وقف قبل قليل وإلى جواره الريّس عبد الباسط في مدخل الشقّة لكي يرحِّب بالقادمين. سبقهم في منتصف الطريق لكي يقف هنا ويستقبلهم وينظر في عيونهم، كلّ على حدة، دون أن يلحظ شيئاً يفهم منه أنّ أحدهم يعرف موضوع رأس العجل أو تساوره الظنون بشأنه، صحيح أنّه عاملهم بكلّ جدّية، لم يستجب لابتسامة واحدة أو كلمة أكثر من اللازم، كلّه، في حدود الترحّم على العمّ مجاهد. ومع الوقت اطمأنّت نفسه وفكّر أنّه كان يعرف منذ بداية الأمر أنّ أحداً منهم لا يعرف. واستغرب تلك المخاوف التي قتلته ولعن الشيطان وقلّة العقل والدنيا كلّها وشعر بمزيد من الحبّ لكلّ الناس الموجودين، لأنّ ثورة أمّ عبده وإهانتها له، عندما أخبرها بمسألة المعزى، لم يكن مقصوداً منها إلاّ حرصها الشديد الذي يعرفه على عدم بهدلة البيت بكلّ هؤلاء الناس. بل لا بدّ وأنّها شعرت مثله بالتشاؤم لإقامة معزى عندهم. وهكذا شرع ينقل عينيه بينهم بنظرة جديدة وقال إنّ ما حدث ليس أكثر من مصادفة، وأعمل فكره وقال إنّ ديدمونة أيضاً كانت بريئة وهو يعرف ذلك. لقد ضاع المنديل وسرقته إميليا وأعطته لإياجو وإياجو هو الذي دسّه في حجرة كاسيو، واستغرب من الأخلاق الإنجليزية التي تأثّر بها ثمّ وجدها في الزنقة لا تنفعه. والتفت الأسطى مبتسماً إلى الريّس عبد الباسط والد الشيخ

حمادة الأبيض الذي كان قد تربّع على الكنبة أمام عمود الميكروفون المائل الذي ضبطت قاعدته بفردة حذائه الأسود. لم يكن قد تجاوز العشرين إلّا بسنوات قليلة، وكان يتمايل مع حركة المسبحة بين أصابع يده المستقرّة على ركبته المثنية تحت جبّته المفتوحة عن قفطانه اللامع. كان وجهه في لون الملح الرشيدي المشرب بالحمرة عند حلمتي الأذنين والخدّين. وتحت حافّة طربوشه، بدت سوالفه وحاجباه الخفيفان وأهدابه الطويلة كأنّها الخيوط الفضيّة الناعمة. كان الشيخ حمادة الأبيض قد ولد لزوجين سودنيّين. وكان أبوه الريّس عبد الباسط يعمل في سميراميس وصاحب مزاج. وقد أتى من الخارج مخموراً وصعد ليجد نفيسة في حالة وضع ابنه البكر فهبط ثانية وجلس عند عمّ محمّد حسن أبو جابر وشرب ثلاث زجاجات باردة من البيرة حتّى أخبروه أنّها ولدت. وعندما صعد ورأى المولود كأنّه الشمس الصغيرة طلعت من جسد نفيسة بنت بحر السوداء طار السكر من رأسه ورمى عليها يمين الطلاق ثمّ أعادها في اليوم الثاني عندما أخبروه أنّه كفر بالله. وفي العام التالي وضعت بنتاً سوداء فطلّقها مرّة أخرى وردّها. كان يرى حمادة وكأنّه المعجزة البيضاء تسير على قدمين صغيرتين وهي تتشبّث بأرجل الكراسي وحافّة الكنبة وتزحف على الحصيرة وتبكي وتضحك وترضع وتمرض وتسنّن وتخرج الفضلات وتنظر إليه وهي تمشي في الطريق إلى جوار الجدران وقد مالت برقبتها النحيلة الطويلة وجلبابها القصير الذي يكشف عن الساقين العاجيّتين النحيلتين، ترفع يدها لكي تداري عينيها من ضوء الشمس، ويعجب الريّس من نفسه ومن الدنيا ومن نفيسة بنت بحر

ثمّ يسكر وينسى الأمر كلّه. وهكذا بدأ الأسطى قدري يتنقّل بين المعزّين في صورة طبيعيّة ويقول لنفسه إنّه مثل المريض الذي يتقدّم الآن نحو الشفاء، ورأى الولد فاروق يدخل ويشغّل الماكينة ثمّ فوجئ أنّ زغلول بائع السمين قد أتى للعزاء وصافحه بيده الطريّة ولعّب له حواجبه التي يزجّجها عند الأسطى سيّد طِلِب الحلّاق، ورأى عيونه الخليعة الضاحكة وأوشك الأسطى على الهياج الشديد فترك البيت والمعزى وفي نيّته أن لا يعود إلّا بعد أن ينتهي الشيخ حمادة من تلاوة الربع الأوّل وانصراف هذه الدفعة من الرجال بمن فيهم زغلول الوسخ. وكان الشيخ قد بدأ يتنحنح فعلاً وينقر بإصبعه على الميكروفون حتّى هدأت الأصوات تماماً.

وعندما بدأ يقرأ الرحمن تركهم فاروق وخرج إلى الطريق ونظر من بعيد واطمأنّ على وجود سليمان وشوقي هناك عند المخزن واتّجه إلى حارة أمير الجيوش ودخل البيت وأخبر أمّه أنّه مشغول بالعمل والإشراف على اللّيلة الكبيرة المعمولة للعمّ مجاهد في ميدان الكيت كات. واتّجه إلى المرحاض ودفع بابه الخشبي المزنوق وتبوّل على الجدار لكي لا يطرطش على أطراف البنطلون ثمّ استدار وقال إنّه سوف يخرج لأنّ هذه الماكينة التي تسمعها الآن وهي تقرأ القرآن عهدة عنده وأنّه استلمها بالإيصال ولا بدّ أن يعيدها مرّة أخرى وخرج إلى الحارة وهو يغلق أزرار البنطلون وحينئذ التقى مع فاطمة وهي عائدة، قالت له «مالك يا واد. أنت سكران والّا إيه؟».

وابتسم فاروق واقترب وأخبرها أنّها عادت مبكّرة ووضع يده على ذراعها وسألها إن كانت هذه الفانلّة جديدة وابتسمت فاطمة وتركته

قليلاً ثمّ استدارت ودخلت وهي مازالت تبتسم مسرورة لأنّ الظروف خدمتها ولم تلتق مع يوسف بعد أن فكّرت وعرفت أنّها لو ذهبت معه إلى شقّة صديقه فسوف يمكنه أن ينام معها حتّى تعرف ويثبت لها نفسه ثمّ يتركها. لقد فكّرت وهي في الأوتوبيس عندما تصوّرت نفسها تخلع ملابسها في مكان لا تعرفه وخافت لأنّها لم تخلع ملابسها بعيداً عن إمبابة أبداً. وقالت إنّ أحسن طريقة هي أن تقابله وتخبره بأنّها مشغولة ولن تستطيع أن تذهب معه إلى هناك وتعود به إلى إمبابة وإذا أراد بعد ذلك أن ينام معها فسوف تأخذه إلى الحجرة الأرضيّة المغلقة ويفشل معها مرّة أخرى ويظلّ متعلّقاً بها لكي يثبت لها أنّه يستطيع أن ينام معها، ونزلت من الأوتوبيس وقد استقرّ رأيها على ذلك ووقفت تنتظره وهي سعيدة لأنّها اكتشفت هذه الطريقة ثمّ سمعت الهتافات العالية، وأحسّت بخوف يتولّاها وتراجعت بسرعة حتّى الإسعاف وركبت من هناك دون أن ترى يوسف. وبعد أن ابتعدت عن المكان واقتربت من إمبابة شعرت بالاطمئنان وقالت إنّ الظروف خدمتها، وإذا سألها لماذا لم تحضر يمكنها أن تخبره بأنّها ذهبت في الموعد ولكنّها وجدت الدنيا مقلوبة وكان من الضروري أن تعود ولا تنتظر. ودخلت فاطمة من باب الشقّة ووجدت أمّها تجلس مع أمّ روايح أمام المرحاض المغلق، فقالت: «مساء الخير»، وخلعت الحذاء والجونلة ودخلت إلى المرحاض وعرّت نفسها وجلست تتبوّل أمام السيّدتين دون أن تغلق الباب، ثمّ انفجرت ضاحكة وهي تتطلّع أمامها وتقول: «بتبصّي على إيه يا مرة أنت وهي؟» وضحكت المرأتان بينما خرجت هي وفتحت حقيبتها وأخرجت عدداً من أكياس النشوق

الصغيرة أعطتها لأمّها وقدّمت لها سيجارة وأشعلت واحدة ولبست الشبشب وغادرت البيت ووقفت على باب الحارة بفانلّتها الصوفيّة وقميصها الحريري الأحمر الذي يصل إلى منتصف فخذيها الخمريّتين النحيلتين واتّكأت على الجدار وهي تمسك سيجارتها ونظرت من مكانها إلى نافذة يوسف ورأتها مطفأة وعرفت أنّه ليس موجوداً فقالت بصوت عال: «إزيّك يا بقّال يا ابن الكلب؟» وصمت جابر قليلاً وهو يلتفت ناحيتها ثمَّ قال إنّه على العموم لن يردّ عليها، وشخرت هي وقالت:

«ليه وحياة أمّك؟» وجاءت متمهّلة واقتربت منهم بقميصها الداخلي القصير وشعرها المحلول: «مساء الخير».

وصاح سليمان كأنّه بوغت: «مساء الخير».

واتّجهت إلى مدخل الدكّان ومالت على الطاولة الرخاميّة لكي تكلّم جابر وأعطتهم ظهرها وبان باطن فخذيها الموردّتين، ونظر فاروق وغمز بعينه، ولكنّ سليمان لم يره لأنّه كان يفتح عينيه بصعوبة. ثمَّ سمع ضحكتها العارية المبحوحة ورفع رأسه ورآها تبتعد وهي تلعب بوسطها وتميل إلى حارة أمير الجيوش وتغيب دون أن تلتفت. وقال فاروق: «إيه رأيك؟».

وهزّ سليمان رأسه المثقل ولم يجب.

«ليك مزاج؟»

وقال سليمان في غير حماس: «مش معقول».

وقال شوقي إنّ فاروق ممكن يوصله، فقال سليمان بنفس الفتور إنّه على استعداد لدفع أيّ مبلغ: «أدّيله خمسين جنيه يا جابر».

وقال فاروق إنّ ذلك ليس الآن، لا بدّ من عمل الترتيب والأفضل أن يفتحوا لها زجاجة بيرة. وعندما وافق سليمان اقترح فاروق أن تكون زجاجتين من البيرة وزجاجة واحدة من الكينا لكي تدوخ، ومال على أذن شوقي وهمس له بصوت عال بخصوص هذا الموضوع وسمعه سليمان وهو يقول فاطمة، وأنّهم لا بدّ وأن يخدموا سليمان لأنه حبيبهم وطلب من جابر أن لا ينسى الجبنة والزيتون وقام واقفاً وحمل زجاجتي البيرة وزجاجة الكينا الكبيرة وورق الجبنة البيضاء والرومي والزيتون الأسود واستدار لكي يذهب إلى الحارة، وخاف سليمان وقال: «الله. أنت رايح هناك؟»

ـ «طبعاً».

فقال وهو يلتفت إلى شوقي: «خلّيك شاهد. أنا مليش دعوة».

ـ «أنا شاهد».

ـ «أصل أنا قاعد معاك، وعاوز أقوم بقى».

وعندما رأى فاروق قادماً من هناك حاول القيام، ولكنّ فاروق قال له «خلاص».

ـ «قلت لها؟».

ـ «عيب».

ـ «قول والله العظيم؟».

ـ «خلّيك تقيل أمّال».

ـ «وهي سمعتك وأنت بتقول؟».

وقال شوقي: «مادام قالّك خلاص، يبقى خلاص». وظلّوا يشربون.

وفي المرّة الثانية عاد فاروق من حارة أمير الجيوش وهو يحمل أربع زجاجات فارغة من البيرة، وجلس وقال: «سليمان، إيه رأيك بقى، أنا النهارده بالذات، عاوزك تنام مع فتحيّة، بلاش فاطمة».

ورفع سليمان رأسه بصعوبة وقال «مين؟».

- «فتحيّة».

وقال شوقي: «فتحيّة؟ يا سلام، فتحيّة دي روعة».

وطلب فاروق من شوقي أن يذهب لكي يتّفق مع فتحية. وعندما ابتعد شوقي قال سليمان بغضب: «لكن أنا كنت عاوز دي».

وأخبره فاروق أنّ فاطمة هي فتحيّة وأنّه يستطيع أن يختار أيّ واحدة ولكنّه لم يخبره بذلك لأنّ شوقي كان موجوداً وهو لا يريده أن يعرف حتّى لا يذهب هو وينام معها. وقفز جابر من مدخل الدكّان وأخبرهم أنّه سوف يذهب بعد قليل لكي يحضر اللّبن والزبادي من الزمالك. وعندما قال له فاروق إنّهما سوف يذهبان مع صديقهما سليمان لقضاء مشوار مهمّ جدّاً ثمّ يعودون لانتظاره، اتّجه جابر إلى سليمان وقال إنّه ولا مؤاخذة يريد أن يأخذ الحساب بالمرّة. وبينما كان يحاسبه ويأخذ منه النقود كان شوقي قد تبوّل في حارة توكل وعاد يتأرجح وهو مايزال يثبّت أزرار البنطلون، وقال فاروق: «خلاص؟».

- «يالاّ بينا».

ولكنّ سليمان لم يستطع القيام من مكانه. حمله شوقي وفاروق من تحت إبطه حتّى وقف وأخذاه وابتعدا: «شوف، أنت حتدخل أوّل

حارة شمال، وبعدين أوّل حارة يمين، حارة توكل، هو البيت اللّي بيسدّها، تروح داخل على طول».

«هو مين؟»

«أنت».

«إزاي؟»

«على طول».

وقال شوقي: «آه. على طول».

والتفّت ساقا سليمان ودار بنصفه الأعلى إلى الناحية المعاكسة وأعاده فاروق إلى وضعه الأوّل واتّجها به إلى أوّل حارة توكل المظلمة، وهمس فاروق بأنّه البيت الذي يسدّ الحارة. وقال شوقي إنّه سوف ينتظره في هذا المكان. وعندما بدأ سليمان ينقل قدميه تراجعا إلى الوراء قليلاً. كان سليمان قد مال إلى الأمام ومدّ ذراعيه عن آخرهما وهو يفتح فمه وتقدّم حتّى وصل إلى البيت الذي يسدّ الحارة القصيرة المظلمة. كانت نافذة الدور الأرضي مغلقة والضوء الخفيف يتسرّب من بين ألواح الكرتون التي تسدّ الشيش من الداخل. اقترب بوجهه وراح ينظر وقد استند بكلتا يديه على جانبي النافذة. وتراجعا مسرعين وهما يكتمان أنفاسهما وابتعدا جرياً وهما ينفجران في الضحك حتّى وصلا إلى المقهى ولكنّهما لم يجدا مكاناً خالياً ووقفا في منتصف الطريق وطلب شوقي من عبد الله كوبين من الشاي السادة وأشار بيده إلى المكان الذي سوف يجلسان فيه عند سور الجامع وراء الجاويش عبد الحميد والأمير عوض الله حيث جلسا على قاعدة السور الحجريّة وتناولا الشاي من عبد الله الذي سألهما في غضب وهو يحمل الصينيّة إن كان

أحـدهما يـريد أن يشرب كـوب الماء ثمَّ استـدار قبل أن يسمـع منهـما شيئاً. وعندما نزل من على الرصيف نظر الأمير ورآه وقـال له: «فـين القهوة يا عبد الله؟» وعاد يتطلّع إلى هناك.

كـان روّاد المقهى قد اكتملوا، ربّمـا غـاب واحـد أو آخـر، ولكن الشكـل العام لكـلّ الشلّة قد تحـدّد. كان بعضهم قـد ذهب للعـزاء وكان بعضهم قد عاد. أبناء فضـل الله عثمان وقـطر الندى والسـوق. هـل يعرف أحـدهـم أنّها قد تكـون السهـرة الأخـيرة التي يقضـونها في مقهاهم؟ وقال الأمـير إنّ المعلّم عطيـة حمار. كـان بوسعـه أن يشتري البيت ويبقي كـلّ شيء على حـاله. كـان بوسعـه أن يشتريـه قبـل أن يشتريه المعلّم صبحي. وعاد الأمير وتـوقّف عن التفكير في هـذا الأمر لأنّ التفكير فيه قد أحزنه، وأراد أن يجد طريقة أخرى يفكّر بهـا وقال إنّه لو استطاع أن يفعل ذلـك فسوف يمكنـه أن يشعر بـالراحـة أكثر. ولكنّـه لم يعرف، وفكّـر مرّة أخـرى وقال إنّ الإنسـان لازم يخرج من نفسه لكي يراها كما يقول يوسف النجّار. ولكنّه حـاول دون فائـدة. نعم. كيف يمكنه وهو يجلس الآن في المقهى أن يـرى ما سرقتـه الأيام والشهور والسنين؟ كيف؟ لقد جاء إلى المقهى في مـطلع النهار حتّى لا يفوته شيء. لم يتركه. حاول أن يتذكّر شكله عندمـا كان يـأتي برفقـة والده وهو صغير وعرف أنّه حاول المستحيل. وقال الأمـير إنّك لا بـدّ كنت طفلاً مثل أيّ طفل آخر، تـرضع ثـدي أمّك وتضحـك وتبكي وتنطق كلماتك الأولى ولا بـدّ أنّ أباك الحـاج عوض الله كـان يحملك أحياناً بين ذراعيه ويضمّك إلى صدره ويهدهدك وهو يروح ويأتي أمام السريـر لكي تكفّ عن البكاء وتنـام، كما تفعـل أنت الآن مع ابنـك

عبد الله. لو كان عبد الله كبيراً لأحضره إلى المقهى الذي يحمل اسم جدّه عوض الله ولكن عبد الله لو رأى المقهى الآن فلن يتذكّره، وقال الأمير إنّ الحبل قد انقطع، المقهى ضاع، وعوض الله ضاع، واليوم فقط يموت أبوك. وذهب بنفسه إلى بعيد. الكيت كات والبوّابة الحجريّة الكبيرة والكتابة في قوسها الجليل العالي: «انتهت معركة الأهرام هنا في ٢١ يوليو ١٧٩٨»، وأحضر عبد الله فنجان القهوة وتلكّأ قليلاً ثمّ ابتعد. وتذكّر الأمير يوم بكى من أجلها. كان يعرف أنّ المقاول قد اشترى الكيت كات أنقاضاً. وعاد من العمل ورأى حجارتها النظيفة الضخمة مفكوكة وملقاة أمام الأرض التى خلت من ورائها عند مدخل المدينة. وتذكّر عندما كان يقف في زاوية من الميدان ويرى بعض المناضد المربّعة وقد غطّتها المفارش البيضاء التي تدلّت على الحشائش الخضراء الداكنة، والأشجار القصيرة وقد اختبأت فيها القناديل بضوئها الخفيف كأنّها الأقمار الصغيرة، وفي المساء كثيراً ما كان يعتلي شجرة الكافور مع سالم وسعيد. ويوسف وحمامة ويحيى، هنا كانت القاعة الشتويّة التي انتصبت على سطحها الأعمدة الرخاميّة بتيجانها الصغيرة تحت السقف الخشبي بحوافه المخرّمة المدلّاة لكي يصعد الملك ويجلس في الصيف. كان ينظر ويرى مدخله الخاص الصغير والمقبض النحاسيّ الثقيل. وتذكّر الأمير أنّهم كانوا يقفون هنا أيّام الحرب ويرون جنود الحلفاء الذين يعسكرون في الكيت كات وجنينة الجوافة وعوّامات النيل، كانوا كلّهم من السود ويطلّون من أعلى القاعة الشتويّة ومن البوّابة الحجريّة العالية ومن وراء أسلاك الجنينة ويقولون: «إحنا مسلمان» ويلقون لهم بقوالب الشيكولاتة والمطاوي الغليظة ذات المقابض الخشنة السوداء

يستبدلون بها القروش القليلة ويشربون بها الكازوزة. وكان محمّد عطيّة يشتري منهم الكاوتش ويعيد شراء المطاوي من الأولاد. وكان حمامة يأتي هو وشقيقه الكبير وزوج أخته سلامة ويصيحون تحت القاعة: «جف مي ون سيجارت يا خواجة». وكان الهرم الكبير يخبّئ المخدّرات في جنينة الجوافة تحت الشجرة. وبائع القلل وقصاري الزرع والمدقّ الطويل الذي صنعته الأقدام بين أشجار عنب الديب المطرّزة بالحبّ الصغير الأسمر وهم في طريقهم إلى سيدي حسن أبو طرطور بحجرته الطوبيّة. والمقابر، كانوا يصعدون فوقها لكي يتسلّقوا أشجار التوت، ويأكلوا ويملأوا جيوبهم، وفي البيت كان يضرب لأنّ عصير التوت كان يجلد جيوب الجلباب، والتوت الطويل المملوء بالعسل الأبيض والأحمر. والولد سيد الأقرع والحجرات الصغيرة الصفراء في الناحية البعيدة مكان عمارات الأوقاف الآن ويقولون إنّها السجون التي بناها نابليون وأخذها البارون وجعلها حظائر لخيوله العربيّة الأصيلة التي يربّيها ويجعلها تجري في السباق. والفيضان، والماء يجري ويفور ويتقلّب بالطمي الأحمر ويعلو حتّى توازي مداخل العوّامات رصيف الطريق وترفع عنها السلالم وعروس النيل والبواخر والمراكب المزيّنة والدنيا كلّها على الشاطئ وأبوه يمسك يده وهو يتابع الدوّامات الثقيلة التي تغلي وتلم الأشياء الصغيرة وتدور بها وتأخذها في ثقوبها الغائرة وتغلق عليها. فكّر الأمير أنّ الدوامات تنظّف وجه البحر، وانتبه إلى أنّ هناك شيئاً غريباً قد حدث، ثمّ عرف أنّ السبب في ذلك هو أنّ ما يسمعه في السمّاعة الكبيرة المعلّقة ليس قرآناً، ولا بدّ أنّ الشيخ حمادة الأبيض قد ختم، لأنّه سمع صوتاً يقول إنّهم يقولون كلاماً فارغاً. ومضت فترة من الصمت وعاد الصوت يقول

إنّهم لا يعـرفون البـارون هنري مـاير الـذي كان يملك إمبـابة عنـدما
كانت مزروعة بالشمّام. وسمع الأمـير صوت شيء ثقيـل يسحب على
الأرض وخبطة عالية بينما كان الصوت يقـول إنّ أيّ واحد كـان يمكنه
أن يمدّ يده ويأخذ أيّ شمّامة ويـأكلها دون أنّ يـراه أحد، وقـال إنّه لم
يكن يفعل ذلك أبداً لأنّ من يأكلون من شـمّام إمبابـة كانـوا يصابـون
بالإسهال، ومكتوب ومعروف في التاريخ أنّ جيش فرنساً عندما جـاء
إلى هنا من أمّ دينار لكي يعسكـر ويحارب مـراد باشـا صاحب شـارع
مراد أكل الشمّام المزروع كلّه. ومكتوب أيضاً أنّ نـابليون عنـدما رأى
الجيش كلّه عنده إسهال أمرهم أن يأكلوا الشمّام من أيّ مكان إلاّ من
إمبابة. وعلماء الحملة الفرنسية قالوا إنّ من يـريد أن يـأكل من شـمّام
إمبابة عليه أن يغليه في المـاء الساخن أوّلاً، وبـدون ذلك لا يمكن أن
يأكله أبداً. عندئذ عرف الأمير أنّه صوت العمّ عمـران وأدار عينيه في
الجـالسين أمـام المقهى. ورأى عدداً كبيـراً منهم قـد انتبهـوا فـابتسم
والتقت عيناه بعيني فاروق وشـوقي وسمع العمّ عمـران يقول بصـوته
المتعب الذي يطلع كبيراً من السّاعة القائمة المعلّقة في مقـدّمة سـطحه
العـالي: في أحد الأيّـام ونحن بالسـوق، جـاء الحـاج عـوض الله من
بـلاده البعيـدة. كـان قصيـراً ونحيـلاً ولا يشبـه أحـداً من أولاده
المـوجودين الآن، ولكنّ الأمـير يشبهه بعض الشيء، لـو دقّقت فيـه.
اشتغـل عند البـارون يلمّ الفلوس من الفلاّحـين الـذين يستـأجـرون
الأرض ويزرعونها بالشمّام ويعـطيها لـه. وبعد ذلـك بنى الكيت كات
الـذي تعرفـه واستأجـره الخواجـة كالـوميروس. وبكت طفلة صغـيرة
وسمع الأمير كفّ أمّ عبده وهي تربت عـلى ظهرهـا وتقول «هـووه».
وانفجر صوتان آخران في بكاء حاد وقـال العمّ عمران إنّ الخـواجات

عندما أحضروا المونة لكي يبنوا الكيت كات جاء الحاج محمّد موسى أبو الشيخ حسني ومعه الرجال الذين يعرفهم وسرقوا من الخشب والطوب والجير كلّ يوم كميّة صغيرة لا يشعر بها البارون ولا الخواجات، والحاج عوض الله كان يعرف ولا يقول، كنّا نرى الكيت كات وهو يكبر ونرى البيت وهو يكبر معه. هذا البيت الصغير القديم الذي اشتراه المعلّم صبحي. هذا البيت الذي لا يعجبك أنت وغيرك بني من أحسن طوب وأحسن مونة. عمدان السقف بلّوط والدرابزين والأبواب والشبابيك من الخشب العزيزي أبو رائحة كأنّها المسك والسلّم وأرضية المنادر والمقاعد من خشب الآرو الجوزي المحترم والرخام الأبيض الأصيل والزجاج أبو ألوان المعشق. يعني تقدر تقول إنّ البيت والكيت كات اتخلقوا من أصل واحد ولكن هذا بيت صغير تمشي عنده تشمّ رائحته كأنّه حقّ عنبر مفتوح، وهذا كيت كات: «رقص وطبل وملوك ووزرا وغناء». والحاج محمّد موسى قال إنّ هذا البيت بيته مع أنّه سرق المونة. وعندما واجهوه بذلك قال إنّه لم يسرقها ولكنّه أخذها لأنّه كان لا يخاف من الكلام أمام أيّ واحد بأنّ الذين بنوا الكيت كات هم الذين سرقوها. وقال إنّه أخذ نصيبه ولم يمنع أيّ واحد أن يفعل مثله ويكفي أنّ المونة كانت من أجل بناء خمّارة كبيرة. والحاج عوض الله لم يخبر البارون وفتح في البيت محلاً للبقالة والحاج محمّد موسى لم يكن يأخذ منه الإيجار، ولكن البقالة لم تشتغل فحوّله إلى قهوة عوض الله. والنوبيّون يحبّون الجلوس على المقهى. كانوا يشتغلون معنا في الكيت كات ثمّ يأتون إلى المقهى ويشربون الشاي بالحليب. النوبيّون يحبّون الشاي بالحليب أكثر من أيّ شيء آخر. والحاج عوض الله أصبح شيخ البلد. وانتبه الأمير إلى

الجالسين الذين التفتوا إليه، وإلى المكان الذي صار صامتاً، لا صوت لكلمة، أو لقطعة دومينو تخبط أو زهر يُلقى. وفي منتصف الطريق كان عبد الله يقف بين المقهى والجامع ويداه في جيوب الفوطة القديمة وقد مال برأسه إلى الوراء وراح يحدّق ناحية السّاعة الكبيرة القائمة. وكان جلال بائع العصير قد وقف أمام الدكّان ثابتاً وقد قبض بيمناه على سكّينه الكبيرة ورفع بيسراه عوداً جافّاً من القصب، واستند المعلّم حسين السمّاك على طاولة دكّانه المجاور لمدخل سينما إمبابة، بشعره البنّي المصبوغ ووجهه الكبير الجادّ. وسكتت شلّة الشباب التي التمّت تشرب البيرة أمام كشك الخواجة وهو يطلّ من الفتحة المضاءة، وقاسم أفندي الذي عاد إلى مكانه وراء الكشك ووضع ساقاً على ساق. كان الأسطى قدري قد قال شيئا، ولكنّ العمّ عمران أخبره أنّ ذلك لم يحدث لأنّه سافر إلى الحرب هو وعبد السلام، الله يرحمك يا عبد السلام. مات، عندما كان الترك يضربون البمب فوقنا وجدته داخلاً في خشبة. وعندما عدت ماتت ببا عز الدين وإحسان عبده والجيش قام بالثورة المباركة وأغلق الكيت كات والناس خرمته وفتحت فيه الدكاكين. الحاج محمود الشامي وقهوة أحمد حسن مع شريكه محمد عطيه. وقال الأسطى قدري الإنجليزي والخمّارة وقال العمّ عمران والمقلى. كان المقلى موجوداً لآخر وقت، لغاية ما جاء المقاول وهدمه وترك القاعة الشتويّة للآخر بعد ما خلع منها الخشب والرخام. وبدأت الناس تصلّي هناك يوم الجمعة، وربيع سكن فيها هو وأولاده الذين يصنعون شباك الصيد ثمّ هدمها هي الأخرى، ومكان الكيت كات أصبح خرابة كبيرة، ومحمد عطيه أصبح لا يجد مقهى، ولكن الحاج عوض الله مات في نفس

الأسبوع، ومحمد عطيه استأجر المقهى لأنَّ أولاد عوض الله أفنديّة ومتعلّمون ولا يريدون أن يشتغلوا قهوجيّة، وبعد ذلك نشروا في الجرائد أنّهم وجدوا كالوميروس مقتولاً في شقّته عند الناسيونال في شارع سليمان باشا. الجرائد قالت إنّهم وجدوه مذبوحاً من رقبته وهو يلبس فستاناً. وهذا الكلام صحيح لأنّ كالوميروس كان فعلاً خواجه وعنده الداء البطّال. أيّامها كان صبحي يسرح بقفص فراخ لكن ربّنا فتح عليه واشترى البيت. وغمغم الأسطى قدري ببضع كلمات وقال إنّه الشيخ حسني فقال العم عمران إنّ ذلك هو ما حدث فعلاً، وأنّ الذي وقّع على أوراق البيع هو الشيخ حسني الأعمى ولكن الذي قبض الفلوس هو الهرم بائع الحشيش لأنّ الشيخ حسني كان مديوناً له بثمنه: «أيوه. شرب بالبيت حشيش وأفيون». وقال الأسطى قدري: «الله يخرب بيتك يا شيخ حسني». وضرب كفّاً بكفّ. «أيوه. المعلّم صبحي اتفق مع الهرم على الشيخ حسني المسطول وخلّاه يبيع البيت بحق الحشيش اللّي شربه». وقال إنّه سوف يدفع باقي ثمن البيت كلّ يوم قطعة حشيش بنصف جنيه لمدّة ستّة شهور: «أيوه الهرم يضحك على أيّ حدّ. النهارده بس ضحك على الحكومة وهرب من اللومان وقاعد دلوقت عند فتحيّة اللّي بيخبّي عندها الحشيش والفلوس. فتحيّة بتاعة حارة توكل. كلّ يوم. ورفض العمّ عمران وقال لا. إنّهم يقولون الكلام الفارغ، لأنّني أنا الذي وجدته، أنا الذي خرجت وحدي من البيت بعد منتصف الليل وذهبت إلى الدكّان ورأيته جالساً وليس نائماً، لأنّه عندما ينام فهو ينام على جنبه. وكانت الوسعاية خالية وأنا واقف في البرد أقول له السلام عليكم ولا يردّ عليّ بأيّ كلام، وأنا استغربت لأنّني لم أكن أعرف، ودخلت إلى

الدكّان ووضعت يدي على كتفه وقلت له لماذا لا تردّ عليّ يا مجاهد، ولكنّه ترك يدي ونام على جنبه وهو ينظر إليّ. حاولت أن أجعله يجلس كما كان في الأوّل ولكني لم أقدر أبداً وعرفت أنّه مات. وكنت أنت نائماً، لأنّني ناديت عليك ولكنّك لم تردّ عليّ ولم تشعل النور من أجلي، وذهبت إلى شبّاك الفران وخبّطت عليه، وردّت عليّ زوجة الفرّان وقالت من الذي يخبّط على الشبّاك في هذا الوقت؟ فقلت لها أنا الذي يخبّط عليكم، وقالت هل تريد أيّ خدمة في هذا الوقت يا عمّ عمران، وقلت لها نعم، أريد منك أن توقظي الفرّان لأنّ مجاهد مات. وهي أيقظت الفرّان لأنه خرج، وعندما خرج حملناه ووضعناه في عربة الفول المعمولة من الخشب، وهو أمسك بيد العربة التي ناحيته وأنا شمّرت بيجامتي وأمسكت بيد العربة التي ناحيتي، ورحنا نسير به في المطر والليل لكي نذهب به إلى أهله. وعندما ذهبنا به إلى أهله رأيناهم، وعندما رأيناهم أعطيناه لهم. وبعد ذلك تركني الفرّان وابتعد، وأمّا أنا، فقد عدت وحدي إلى البيت، دون أن يراني أحد، ثمّ ارتفع في السّاعة الكبيرة صوت خبط على الباب، وصوت رجل يطلب منهم أن يغلقوا الماكينة لأنّها مفتوحة، ولأنّه سمع الكلام وهو يركب المعدية قادماً من الزمالك وضرب النار شغّال، وصاح الأسطى قدري الإنجليزي: «يا نهار أسود»، وانفجر الضحك دفعة واحدة وعادت الروح إلى ميدان الكيت كات وقام فاروق وراح يجري ناحية فضل الله عثمان، ومن ورائه شوقي يباعد ما بين ساقيه في مرح، وأطلّ المعلم صبحي برأسه من بين أقفاص الجريد. كان الجاويش عبد الحميد يتطلّع أمامه صامتاً، وظلّ عبد الله في وسط الطريق لم يغيّر من وقفته ويكفّ عن تحديقه إلاّ عندما سمع بأذنيه صوت المفتاح

وهـو يغلق في السّماعـة الكبـيرة المعلّقـة، وعـبر الـطريق ووقف أمـام الجـاويش عبـد الحميـد وطلب منـه أن يعـطيـه سيجـارتـين، ولكنّ الجـاويش لم يردّ. ومـدّ عبد الله يـده وتنـاول سيجـارتـين من العلبـة المفتوحة وألقى بالقروش على سطح العربة واستـدار. ونظر الجـاويش إلى القطع المعدنيّة وقد ضمّ شفتيه ومدّهما إلى الأمام: «الله يرحمك يـا حاج عوض الله». هـو الذي رتّب لـك كلّ يـوم كوبـين من الشاي، باعتبارك رجل الأمن المسؤول عن المنطقة. ولكن عبد الحميـد لم يكن يشرب الكوبين دائماً، لذلك كان يديّن عبد الله ويحتفظ لـديه بـرصيد يمكّنـه من دعـوة العمّ عمـران أو المعلّم رمضـان أو غـيرهمـا. لم يكن يشرب إلاّ كوباً في أوّل الليل ثمّ يأخـذ طريقـه في شارع مـراد، يقف هنا أو هناك، حتى يصل إلى العين ويغيب فيها، وقبل أن يتقدّم الليل يخـرج عائـداً إلى الكيت كات، وعنـدمـا يـرى قـوالب النـور الملوّنـة واضحة في النافـذة الطويلة كـان يدرك أنّ الملك مـوجود. في البـداية كان يخاف وينـظر بجانب عينـه إلى المدخـل الملكي الصغير في جـدار القـاعة الخلفيّـة ويبتعد عـلى الفـور، ثمّ تعلّم مـع الـوقت أن يعـطّل نفسه، يتنحنح أو يسعل، أو يطرد بعض الأولاد الذين يتفرّجـون من بعيد، وبعد أن يتملّكـه الإحساس بـأنّ الملك قد سمـع صوتـه يمشي عـلى الـرصيف الضيّق، يضرب الأرض سعيـداً بحـذائـه العسكـري النـظيف. في هذه النـاحية سـور الملهى القـديم، وفي هـذه النـاحيـة أسفلت الـطريق الهادئ وشـاطئ النهر وحيّ الـزمالـك ونجوم السـماء البعيدة الساكنة. وعند شجرة الكافور الكبيرة كان يقف دون أن ينظر إلى أعلى ويراهم، أبناء قطر النـدى وفضل الله عثـمان الذين يـركبون الأغصـان العاليـة ويتفـرّجـون. كـان يقف ثـابتـاً، يتنصّت، يسمـع

تحـذيراتهم الهـامسة هنـاك بين الأوراق الكثيفـة الخضراء، يعـدِّل من وضع بندقيّته بساقها الخشبيّة وماسورتها الطويلة الخـالية من الأعـيرة، ويعقد ما بـين حاجبيـه ويفتّش عنهم بين أعـواد الفلّ واليـاسمين التي تغطّي السور. أيّـام. يعبر الميـدان. يعطي ظهـره إلى موقف عـربات الـترام في نهاية الخط، وينـظر من هنا إلى البـوّابة العـاليـة والأشجـار القصيرة على طول جانبيها والمدخل المفتوح بـين ساقيهـا الحجريّتـين، وقصـاري الورد البلدي والنـور الخفيف على تـراب الأرض النـاعم، والحركة الصامتة التي لا يقطعها إلاّ وصول راقصة أو مـونولـوجست، هؤلاء الـذين يأتـون مسرعين ويـدخلون ثمّ لا يلبث أن يتعرّف عـلى أصـواتهم في سـمّاعـات الملهى المختفيـة هنـاك في الـزرع الأخضر المـرشوش، والـوزراء ورجال القصر الكبـار والأجانب وهم يخـرجون بصحبة النساء في ثيابهنّ الطويلة وأجسـادهنّ وهي تنحني بحرص إلى جوف العربـات المركـونة عنـد جنينة الجـوافة في الجـانب القريب من الميدان، والحلى وهي تلتمع عند طرفي الأذن وعلى صدورهنّ المكشوفة البيضاء. كثيراً ما كانت الإكراميّات توزَّع على العـاملين عند المـدخل وكذلك عبد الخالق الحـانوتي الـذي اعتاد أن يـرشّ الماء في الميـدان. ويـظلّ واقفاً هنـاك دون أن يعرف إن كـانت هناك اكـراميّات أم لا، حتّى يخرج العمّ عمران الطبّاخ ويعـطيه نصيبـه: «الله يجازيـك يا عمّ عمران». كان يخبّئ تحت معـطفه عـدداً من شرائح اللحم المشـويّ، يرافقه حتّى قطر الندى ويأخذ نصيبه من الطعام ويتركـه يدخـل دكّان العمّ مجـاهد ليـظلّ جالسـاً هناك حتّى يـطلع النهـار ويـذهب هـو إلى العين، ولكنّه في بعض الأيام كان يخرج ومعه نصف زجـاجة أو أكـثر من الكـونياك، حينئـذ يزوغ من العمّ مجـاهد. يتـوجّهان إلى البيت،

يصعد معه حتّى برجه الخشبي العالي. في الصيف، كان العمّ عمران يحبّ أن يجلس في السطح على المقعد الكبير الذي أهداه له الخواجة كالوميروس عندما أثنى الملوك على طبق اللحم المشوي الذي يعدّه. كان المقعد في الأصل يخصّ البارون هنري ماير الذي أهداه للخواجة عندما زاره في قصره مع فرقة الراقصات الأجنبيّات. وكان الحاج عوض الله يقول إنّ هذا المقعد المرمي على سطح عمران هو أحبّ المقاعد إلى قلب البارون وأنّه سمعه يقول بأنّه منذ فقد المقعد لم يعد بوسعه أن يجلس بهدوء ويفكّر في أيّ شيء، وأنّه مصنوع من الخشب العزيزي الذي له رائحة تساعد على التفكير السليم. وكان العمّ عمران نفسه يقول إنّ هذا صحيح ولكن باب الحجرة الضيّق لا يسمح بدخوله، لذلك تركه حتّى يجد طريقة يدخله بها. وأمّا في الشتاء، فلقد كان يصحبه داخل الحجرة الخشبيّة، يأكلان، والعمّ عمران يسكر ويحدّثه عن أسرار الحكم والحكّام. كان يحبّ تلك النوادر التي تأتي في أوّل الكلام، ويودّ أن يبقى، ولكنّه في كلّ مرّة ينتبه إلى صوته الذي يأخذ في الخفوت ويروح يتردّد بطيئاً بين جدران الخشب يتحدّث عن أشجار النخيل التي زرعها وشقيقته التي تاهت وهي طفلة وباب زويلة ومجرى العيون. يوشك هو أن يتوه ويترك الداورية. حينئذ كان يتركه ليقرأ الجرائد الأجنبيّة التي أحضرها معه ويدخّن البايب الذي يحتفظ به في القبّعة البيضاء المقلوبة على الراديو الخشبي الكبير ويشرب ما تبقّى من الكونياك. يغادر البرج إلى العين ويظلّ هناك حتّى يسمعوا أذان الفجر ويتّجهوا إلى المصلّى الصغير على شاطئ النهر. زين المراكبي يؤذّن والشيخ حسني يقف إماماً ويصلّون

الفجر حاضراً في رمضان فقط. وعندما يعودون إلى شارع السوق يتركهم ويمشي وحيداً على الشاطئ حتّى يصل إلى المركز ويسلّم السلاح، ويدخل المرحاض الميري، ثمّ يعود إلى البيت وينام. وأراد الجاويش أن ينام: «الله يجازيك يا عمّ عمران». وأشعل لنفسه سيجارة، واستدار.

* * *

بدأت تمطر، راحت القطرات الأولى تحدث صوتاً على رقعة ورق ملقاة أسفل الرصيف.

(١٢)

قفز الهرم الكبير واقفاً. فضحه العمّ عمران في الميكروفون والحكومة والدنيا كلّها عرفت مخبأه: «يا نهار اسود. الراجل ودّانا في داهية».

«انت رايح فين؟».

قال وهو يدخل قدميه في الحذاء: «لازم أمشي حالاً».

- «خد حاجتك معاك».

ونزع الهرم الكبير كيس المسند الصغير ولمّ داخله كل ما يملك من مخدّرات ونقود وأسرع بالخروج من باب الحجرة ونزل السلّم دون أن يصدر عنه أيّ صوت.

(١٣)

قفز جابر من فوق طاولة البيع، وركب الدرّاجة السوداء ذات

القفص الحديديّ الكبير، وغادر الوسعاية مسرعاً حتّى وصل إلى الناحية الأخرى من المقهى، وعندئذ خرج الخواجة بجلبابه الصوفي وساعته الأورينت واعترض طريقه وأمسك به أن يتفضّل. أخبره أنّ البهوات يعزمونه وعيب أن يكسفهم. وكانت جماعة من الأصدقاء قد افترشت مقدّمة عربة أحدهم بجريدة مفتوحة عليها قطع الجبن وأرغفة العيش وأعواد الخسّ وكميّة من الزيتون الأخضر والأسود وكومة من شرائح الطماطم، وعلى سطح الثلاّجة الكبيرة كانت زجاجات البيرة مبتلّة ومرصوصة، والخواجة ينظر إلى جابر مبتسماً وقد ظهرت سنّته الذهبية ويمسك في يده نصف زجاجة بيرة لأنّه كان يحبّ مشاركة الزبائن في الشرب ويقول إنّ المسألة بالنسبة له هي قعدة الناس الحلوة، وأمّا مكسبه من بيع البيرة فهو يشرب به وأكثر. وأمّا جابر فإنّه لم يشاهَد أبداً وهو يشرب مع أحد من زبائنه وكان من المعروف أنّه لا يشرب لأنّ دماغه خفيف. وكان يرتدي بنطلوناً قديماً وفانلّة صوفيّة وفي يوم إجازته كان يترك الدكّان لوالدته ويلعب ماتش كرة أو ماتشين ضدّ المنيرة والجزيرة ثمّ يأخذ فاروق وشوقي ويأكلون الكشري ويذهبون لقضاء السهرة في السينما، وكان مايزال يركب الدرّاجة وقد أنزل قدمه اليمنى إلى الأرض ومال بجسده الممتلئ واستند بمرفقه على مقدّمة القفص الحديدي الكبير، ينظر بوجهه الأسمر وعينيه الباسمتين ويريد أن يذهب إلى الزمالك لكي يأتي بأكياس اللبن وعلب الزبادي. وأمّا الخواجة فقد كان يقف في ضوء النيون المعلّق في فتحة الكشك ويريد أن يضحك على جابر ويستدرجه ويسقيه كوباً أو كوبين من البيرة، ثمّ يتركه يعود إلى

الدكّان وهو لا يعرف رأسه من رجليه فرجة أمام زبائنه الذين يفضِّلون السهر عنده، ويخطفهم منه. وطلب من جابر أن ينزل من على الدرَّاجة ويأخذ كوباً من البيرة: «جرِّب البيرة الطازة».

وأبعد جابر عينيه الطيّبتين عن الخواجة وقال إنّه ذاهب إلى الزمالك لإحضار اللبن والزبادي: «مرّة ثانية والنبي، أصلي سايب الدكّان لوحده».

وأمسك الخواجة بمقود الدرَّاجة: «يا راجل عيب. عبِّر الناس اللّي واقفة».

وقال أحدهم: «الظاهر أنّه خايف ينزل، ما يعرفش يركب تاني».

ونزل جابر وهو يشاركهم الضحك ويسلم أمره إلى الله. وركن الدرَّاجة إلى جوار الرصيف، ورفع يده بالتحيّة إلى قاسم أفندي الذي كان يجلس وحيداً على مقربة من الكشك وقد وضع ساقاً على ساق، واتجه إلى زجاجات البيرة المرصوصة على الثلاّجة الكبيرة. كان الخواجة قد انحنى فرحاً داخل الكشك لكي يحضر كوباً ويملأه من زجاجته ولكن جابر مدَّ يده ورفع زجاجة البيرة إلى فمه ومال برأسه إلى الوراء ولم ينزلها إلاّ فارغة. وعندما وجد الزجاجة الثانية مغلقة أطبق بضروسه على غطائها المعدني وانتزعه وتركه يسقط بين قدميه. وفي دقائق قليلة كان جابر قد أتى على تسع زجاجات من البيرة ومسح فمه بظهر يده وهو يسحب درَّاجته ويقول: «لا مؤاخذة يا بهوات، أصلي مستعجل شوية»، والتفت إلى الخواجة الذي كان يقف صامتاً بين علب السجاير المستوردة وقال: «يدوم يا معلّم»، وقفز على

الدرَّاجة وانطلق يعبر الميدان: «ولاد القبحة بيفتكروني كاركي. ولاً يمكن فاكرني خواجة».

(١٤)

عندما غادر بيت الأسطى قدري الإنجليزي، كان يتوقَّف بين الحين والآخر تحت جدران البيوت المتقاربة، ويمدّ يده إلى بعيد، ويتلقَّى المطر النازل الآن على هيئة قطرات رفيعة وخفيفة، يضمّ كفّه، ثمَّ يفردها ويمسحها في رجل بنطلون بيجامته المقلَّمة، وكلَّما اعترضته إحدى العتبات الزلقة العالية صعد عليها وهو يتَكئ على الجدار. وقبل أن يصل إلى مدخل البيت ارتفع نباح رفيع ناحية دكان العمّ مجاهد، وتقدَّم العمّ عمران قليلاً وتوقَّف تحت أرضيّة البلكونة الخشبيّة المائلة، وانحنى بنصفه الأعلى وهو يستند بيديه على ركبتيه المرتجفتين. كان النابح كلباً صغيراً غزير الشعر يقبع ملتصقاً بالجدار. مدَّ يده اليمنى ولامس شعره المبتلّ وجسده الدقيق الراجف، وحمله بيديه الاثنتين، وعبر الوسعاية إلى مدخل البيت وهو يضمُّ الكلب إلى صدره بيد واحدة، وهبط الدرجة المبتلّة وتقدَّم في الحوش الرطب أمام مدخل الحجرة الأرضيّة المغلقة، ثمَّ استدار، وراح يصعد الدرج.

كانت حجرته الخشبيّة في مؤخَّرة السطح الصغير العالي، والمرحاض الضيِّق المسقوف. اتّجه العمّ عمران إلى المقدّمة ووقف وراء المقعد الخشبي الكبير، ونظر إلى سطوح البيوت وميدان الكيت كات والجامع الكبير الأصفر، جامع خالد بن الوليد، ومداخل المدينة الثلاثة، السودان، وشارع النيل، وشارع السوق الذي يقسمها إلى نصفين. كان يرى شجرة الكافور الكبيرة، والمقهى وأقفاص الطيور،

وكان الكلب الصغير يحاول الإفلات وهو يشبك مخالبه الحادّة في قماش البيجامة الكستور. ربت عليه وهو يستدير إلى الناحية الأخرى: الأسفلت المبتلّ، والنهر القريب تحت طبقة البخار الخفيفة، وأشجار الشاطئ الآخر، وبنايات حيّ الزمالك الكبيرة والنور الواضح في النوافذ والشرفات المغلقة التي تباعدت في سواد الليل الكامل، حينئذ مدّ يده وفتح باب الحجرة الخشبيّة وأشعل النور، وأغلق الباب جيّداً، كانت اللمبة الكهربائيّة معلّقة في سلك رفيع مجدول يتدلّى من السقف، ويعلوها طبق من البلّور له حوافٍ منقوشة، وإلى جوار الفراش ذي الأعمدة النحاسيّة الصفراء مقعد منخفض ومائدة عليها كميّة من الجرائد وبينهما إطار من الخشب المعشق بالأصداف حول صورة عائليّة باهتة. وكانت الوسادة مكسوّة بقماش مشغول وملقاة على حشية طويلة بجوار الجدار المواجه للفراش والمقعد المنخفض. مال ووضع الكلب على هذه الوسادة، واتّجه إلى الركن القريب حيث رتّبت بعض الأواني إلى جوار الصندوق الذي التصقت بجوانبه أعداد من بطاقات السفر القديمة المتآكلة. تناول منشفة برتقاليّة وغمسها في صفيحة الماء المغطّاة إلى جوار السلّة الفارغة والطشت النحاسيّ المستدير، وعاد إلى الكلب الذي جلس على بطنه المبتلّ وأخذ يبصبص بذنبه عدّة مرّات، وجلس إلى جواره وراح يجفّف شعره الطويل الملفوف ويزيل ما علق بقدميه من أوحال. وعندما انتهى اتّجه إلى المشنة الصغيرة وأحضر كسرة خبز كساها بطبقة من الجبن الأبيض ومزّقها إلى لقم صغيرة ووضعها أمامه، وجلس على الفراش وخلع حذائيه وأبقى الجوربين الطويلين، وقام واقفاً وفكّ أزرار جاكتة

البيجامة وخلعها هي والبنطلون. كان العمّ عمران يرتدي تحتها بيجامة أخرى من الكستور المقلَّم بخطوط باهتة. اتّجه إلى الباب وأحكم إغلاقه مرّة أخرى، وعبر الحجرة وفتح النافذة الخلفيّة التي تطلّ على الوسعاية ومال ورأى الضوء أمام دكّان جابر البقّال دون أن يرى شيئاً آخر. وعندما سمع صوت الولد فاروق يصيح من هناك تراجع وأغلق النافذة وعاد إلى الفراش الكبير ورفع ساقيه وتربّع جيِّداً، وراح يتطلَّع إلى الكلب الصغير، وعندما رآه وهو يقوم واقفاً ضيَّق العم عمران ما بين حاجبيه الخفيفين وطلب منه أن يعود إلى الجلوس كما كان، إلاَّ أنَّ الآخر هزَّ نفسه جيِّداً، وتقدَّم نحو الفراش في خطوات وئيدة وقد رفع ذنبه إلى أعلى، وجلس على رجليه الخلفيّتين، ونظر مباشرة إلى الفم الخالي من الأسنان، ثمَّ ابتسم.

(١٥)

أخرج الشيخ حسني ساعة الجيب الخاصّة بوالده الحاج محمد موسى وملأها، ثمَّ جلس إلى جوار أمّه على الكنبة وقال: «انت شايفة الساعة دي»؟ دي الساعة بتاعة أبويا، الساعة الفضّة. أنا دلوقت عاوزك تخلّي بالك معايا، لأن أنا حاعلِّمك عليها، علشان لما أقولك الساعة كام دلوقت؟ تعرفي تشوفيها وتقوليلي. انت سامعاني؟ طيِّب. شايفه الزرار الكبير اللي أنا ماسكه ده؟ اللِّي في نصّ الساعة بالظبط، أيوه ده. وشايفه العقربين السود اللِّي جوه الساعة؟ حتلاقي واحد طويل اللِّي هو بتاع الدقائق، وواحد قصير اللِّي هو بتاع الساعات. أنا حاشدّ الزرار الكبير لفوق أهه، وأدوّر العقربين، كدهه، شايفاهم؟ بيتحرَّكوا، مش كده؟ أنا عاوزك لمَّا العقربين الاتنين يبقوا فوق بعض

تحت الزرار بالظبط تقوليلي. هه؟ فوق بعض كده؟ بالظبط؟ أهي الساعة دلوقت تبقى اتناشر.

بصّي بقى على يمينك شويّة حتلاقي علامات صغيرة قوي، بتاعة الدقايق، وبعدين علامة تقيلة شويّة عاملة كده زي الواحد. هي واحد فعلاً بس بالإنجليزي، شايفاها؟ أنا حادوّر الزرار بالراحة، حتلاقي العقرب الطويل سبق القصير، أوّل ما يوصل للعلامة اللّي زيّ الواحد قوليلي، هيه، عندها كده؟ بالظبط بالظبط؟ أهي الساعة دلوت تبقى اتناشر وخمسة. عند العلامة دي بقى اتناشر وعشرة، وربع، وتلت، ونص إلاّ خمسة، كده بقى تبقى ونصّ بالظبط. شوفي العقرب الصغير تلاقيه يا دوب قطع نصّ المسافة اللّي تحت الزرار، صحّ؟ كلّ ما الطويل يلفّ الساعة كلّها مرّة، يكون القصير مشي علامة واحدة. أهوه، اتناشر ونصّ وخمسة، هنا بقى يبقى واحدة واحدة إلاّ تلت، أيوه، إلاّ ربع، إلاّ عشرة، إلاّ خمسة، وبعدين رجع تاني عند الاتناشر، شوفي بقى القصير مشى قدّ إيه؟ علامة واحدة. كده بقى الساعة واحدة بالظبط. عليكي نور، واحدة وخمسة. الله يرحمك يا أمّه».

ورفع وجهه الكبير المائل بلحيته الطويلة التي بقعها البياض، وظلّ هكذا في ركن الحجرة المظلمة، على الحصيرة البالية الصفراء، وقد كوّمت حوله لفافات من الورق وعلب السجائر الفارغة وأمشاط الكبريت وقشر البرتقال الجاف والتراب. كان قد استمع إلى كلام العمّ عمران والأسطى قدري الإنجليزي في السمّاعة العالية، وغيّر الفانلّة والسروال ودخّن سيجارة وفكّر. تذكّر نور وتذكّر الأولاد الذين

ذهبوا بعد موتها ليعيشوا مع أخوالهم. تذكّر أمّه وأباه وارتعشت جفونه الذابلة في جوف عينيه الخاليتين، ورفع يده بالساعة إلى أذنه لفترة من الوقت ثمّ وضعها في جيبه الداخلي وقام واقفاً وهو يمدّ يديه الاثنتين في قلب الظلام، وتناول عصاه واعتمد عليها وهو يدخل قدميه في الحذاء المفتوح، واستدار بقامته النحيلة القصيرة، ومدّ عصاه وغادر الحجرة إلى سطح البيت الكبير وشعر بالبرودة ورذاذ الماء على رأسه الحليق ووجهه المدلّى أمام رقبته النحيلة مثل وجه الحمار الصغير، واتّجه إلى عشّة أمّ روايح وقعد أمامها ووارب الباب بهدوء، وشمّ رائحة الفراخ الدافئة وسمع حركتها الواضحة وهي تهرب إلى الركن البعيد، ومدّ يده وتحسّس الأرضيّة حتّى عثر على بيضة تناولها وقام واقفاً. وأغلق باب العشّة وشبكه بالمسمار كما كان، ووضع البيضة في جيب سترته الخارجي ونزل السلّم الحجري الخالي من السور حتى شقّة الشيخ حمادة الأبيض ثمّ دار مع السلّم واستمرّ ينزل حتّى وصل إلى مدخل حجرة أمّ روايح واقترب بأذنه من الباب وتنصّت قليلاً، ثمّ رفع قدمه عالياً، وغادر البيت.

المستحمّة

كانت حبّات المطر الدقيقة تسقط من السحب المنخفضة، بطيئة تلامس وجه النهر. كان يراها عندما تنبثق شرارة ضوء اللحام من ورش الطريق، ويحسّ بها دافئة على وجنتيه، لا تحدث صوتاً غير همهمة خفيفة وهي تنزل بانتظام وتغسل أوراق الخروع برفق، ورقة، ورقة. وامتلأ الجوّ برائحة الدخان وخرجت الصراصير وخربشت

الخنافس ودبّت حركة السحالي في قاذورات الشاطئ وأعشابه الكثيفة المبتلّة. تربّيت هنا. أتذكر؟.

وتطلّع يوسف النجّار إلى الدرجات الحجريّة المكسورة وإلى أضواء الطريق التي انعكست ضعيفة في ماء النهر. هل هي نفس الدرجات؟ هل هي نفس الأحجار حيث اعتدت أن تجلس؟ تذكر حجراً له سطح ناعم جاف ومغسول، قاعدته مغمورة في الماء وقد غطّتها طبقة خضراء كأنها القطيفة الزلقة. تجلس، وتسند البوصة الرفيعة الصفراء إلى ذراعك اليسرى وتطعم سنّ السنارة بقطعة من العجين المخلوط بالمش أو السمنة البلدي. قطعة مثل حبّة القمح ثمّ تمسك مقبض البوصة بيمناك وتلقي بالخيط الحريري في ماء النهر حيث تأخذه تقّالة الرصاص وتغيب به في العمق القريب. تنظر إلى الغمّازة الطافية وتتابعها جيّداً وهي تتأرجح على سطح الماء وترخي الجزء الأعلى من الخيط لكي تحرّرها من حركة الأمواج الدقيقة الخادعة. وعندما تعتلي الشمس كوبري إمبابة تكون قد اصطدت كميّة من البساريّة الصغيرة وسمكات قليلة من الراي، وتكون البنات قد جئن بالحصر والأواني وتأتي هي الأخرى. كنت تشعر بها وهي تنحني لتنزل حملها على الحافّة هنا، تقف حتّى كاحليها في ماء النهر تتفرّج على بيوت الزمالك في الشاطئ الآخر. أتذكر؟.

عشرون عاماً قد مضت.

كانت تتقدّم وهي ترفع الثوب الخفيف، تلمّه بين فخذيها وتضمّهما جيّداً وهي تنحني أمامك على وجه الماء ويبدأ جسدها يتجاوب مع حركة ذراعيها العاريتين وهي تغسل الأطباق، وبين فترة وأخرى ترفع

وجهها لتدفع شعرها المحلول عن عينيها ويبدو صدرها الحار عريان ويلتقي الوجهان. وجهك ووجهها. ولكن النظرة لا تلتقي أبداً. أنت تجلس على حجر الماء، وهي تبدي خوفها المفاجئ من الوقوع فتتأوّه. وعندما تنتهي، عندما تنتهيان، كانت تعتدل واقفة، تسند جانبي خصرها بيديها وتدفع صدرها إلى الأمام وتحدِّق في عين الشمس التي تعتلي الكوبري وهي تضيق من عينيها الكبيرتين، ثمّ تميل إلى النهر وتغتسل. تمسح بالماء على فخذيها وذراعيها ووجهها وتخرج طرف الثوب المللموم من بين ساقيها وتتركه لينزلق خفيفاً من حولها، وتخرج من النهر تحمل أوانيها على رأسها وتصعد الدرجات الحجريّة وقد التصق الجلباب بجسدها المبلول وبيّن ملامحه، ثقيلة، يقطر منها الماء.

حينئذ تكوِّم الأعشاب الجافّة إلى جوارك وتشعل النار، تنتقي سمكات الراي التي تحبّها وتلقي بها في ألسنة اللهب القصيرة وتلمّ السنّارة، تلفّ الخيط على البوصة وتشبك سنّ السنارة في الغمازة، تركنها، تطفئ النار وتتناول الرايات المشويّة. تأخذ الواحدة من ذيلها وتبرِّدها في ماء النهر وتأكل لحم ظهرها الشبيه بلحم الطيور. وتتناول كأساً آخر من الروم. أنت سكران. لا. أنت فرحان. كان لكلٍّ واحد طريقته في جذب السنّارة وكان يحلو لك أن تراقبهم وأنت تصطاد. هؤلاء الذين يجذبونها وهم يتخبّطون مائلين بها إلى الشاطئ حتّى لا تقع السمكة في الماء ثمّ ينظرون بعد ذلك إلى طرف الخيط المدلّى ليروا إن كانت هناك سمكة أم لا. كنت تراهم وتمتلئ بالبهجة من شدّة حرصهم ومازالت الذكرى تبهجك حتّى الآن. وكان هناك

من هم أكثر دربة. يجذب الواحد منهم سنّارته في حركة سريعة مائلة وتخرج السمكة مخطوفة من الماء وتدور في طرف الخيط الطائر في الفضاء دورة كاملة حيث يدفعها ثقلها في نهاية الدورة لتقبض عليها كفّه اليسرى المفتوحة، وبطرف أصابع يده اليمنى التي تمسك البوصة يخلّص فكّها الدقيق المعلّق. كنت تجيد الصيد أيضاً بهذه الطريقة ولكنّك لم تكن تستخدمها إلّا عندما يكون المنزل مزدحماً لأنّ الأولاد يحرصون على البعد عنك وأنت تصطاد هكذا لكي يعطوا لحركة السنّارة مجالاً أوسع. وكان هناك من يرفعون البوصة بكلتا يديهم وهم يقومون من جلستهم، فإذا كانت هناك سمكة صغيرة معلّقة جروا بها إلى أعلى وصعدوا الشاطئ المنحدر، وأمّا إذا كانت السنّارة خالية فقد كان الواحد منهم يظلّ يتطلّع إلى طرف الخيط ويبدو عليه أنّه انشغل في شيء آخر ثمّ يبحث لنفسه عن مكان جديد ربّما على بعد خطوة أو خطوتين، وربّما حمل السنّارة وغيّر المنزل كلّه وربّما لمّها وصعد وعاد إلى البيت، وأمّا إذا كان الشاطئ خالياً فإنّك تصطاد بالطريقة التي تحبّها، تجذب البوصة جذبة وحيدة ناقصة، تاركاً بقيّة الخيط في الماء، حتّى تشعر في ذراعك كلّها بثقل السمكة الصغيرة المعلّقة، ومقاومتها وهي تسحب بطيئاً من قلب الماء، ثمّ ترفعها إلى أعلى، وتراها. كنت أفضل من حمل سنّارة على طول الشاطئ وأوفرهم حظّاً. لماذا لا تكتب عن ذلك؟ لماذا لا تكتب أنّك لم تشتر سنّارة جاهزة أبداً، ولم تملك واحدة لم تصنعها أنت. تقضي الأيام تمرّ على ربيع بائع السنانير، تقلب في الغاب حتّى تروقك واحدة فتأخذها إلى البيت وتوقد الوابور. تسوّيها على صهد النار وتستعدلها على النحو الذي

تريد. تمدّها أمامك وقد استوت واكتسب قوامها لدونة ولمعة دافئة وبانت فواصل عُقَلِها النحيلة وأنت تجرِّبها في المكان الخالي بين الكنبة والسرير. موزونة في يدك. تأتي بخيط الحرير الملفوف على أعواد الكبريت داخل العلبة المعدنيّة الصغيرة. كرهت الصيد بخيط البلاستيك رغم متانته لأنّه يصير مقوّساً في قلب الماء ولا يكون حسّاساً في نقل حركة السمكة إلى الغمازة. كنت تأخذ قطعة من خيط الحرير في طول البلاطة، وتشبك سنّ السنّارة في خشب الشباك أو الباب، وتجوز قطعة الخيط وتعقدها من نصفها على طرف السنّارة الصلب المدقوق ثمّ تجدل الطرفين معاً، وتعقدهما في طرف الخيط المفرد مرّة أخرى، وتثبّت على مكان العقدة قطعة من الرصاص وتسوّيها بسنّتيك الأماميّتين، وتقيس طول الخيط على طول البوصة وتربطه في العقلة الأخيرة. وبعد أن تعلّق قطعة الفلّين على ارتفاع يتناسب وعمق الماء في منزل حارة (حوا) تكون السنّارة قد أصبحت ملائمة للصيد. أنت سكران. لا. لقد تعلّمت دائماً أنّ الصيد كلّه يتوقّف على التوقيت الدقيق الذي يجب عليك أن تجذب فيه سنّارتك، وكنت ماهراً في فهم حركة الغمّازة الطافية على سطح الماء، لأنّ الغمّازة الصغيرة يحرِّكها حتّى الهواء الخفيف وحده إذا جاء معاكساً لاتّجاه التيّار: يتكسّر وجه النهر ويتغضّن شظايا من الموج تأخذ الغمّازة وتتلاعب بها، ثمّ يأتي الهواء ويصدّها وحينئذ يصير تلاعبها مضاعفاً، ويكون عليك أن تتعرّف على الغمزة الصحيحة من الزائفة، ولأنّ الغمّازة أيضاً قد تتحرّك عندما لا تفعل السمكة أكثر من ملاعبة الطعم بأيّ جزء من جسدها، وقد تكون السمكة في مرحلة التذوّق الأولى

التي تترجمها الغمّازة في نقرات خفيفة متباعدة، وقد تأكل السمكة الطعم من الجنب أو الخلف، وحتّى عندما تأكل طعمك بالطريقة التي تعرِّضها للخطر، وترى قضماتها تتوالى في حركة الغمّازة، فإنَّ عليك أن لا تجذب السنّارة الآن لأنَّ السمكة مازالت واعية بما تفعل، كما أنَّ عليك أن لا تنتظر حتى يتعرَّى السنّ الحادّ أمامها فيشكّها وتهرب.
إنَّ هناك غمزة وحيدة بين هذه الغمزات العديدة، الحقيقية منها والزائفة، لحظة تنسى السمكة نفسها، أو تدرك السمكة نفسها، لحظة تتوحَّد فيها النقرة وقطعة الفلّين وعيناك ويدك. وما أكثر المرَّات التي أغرتك فيها وجعلتك مشدوداً كلّك واللحظة توشك أن تأتي حتى انتهت من طعمها وانصرفت. وما أكثر المرَّات التي أدركت فيها، لحظة الجذب، أنَّك تقدَّمت ثانية واحدة، أو تأخَّرت ثانية واحدة، وأنَّ السمكة قد أفلتت. هذه الغمزة يجب أن تصير لدينا شيئاً من الإلهام. أنت سكران. كلاَّ. أنت تفكِّر، أنت يمكنك حتّى أن تحدِّد نوع السمكة من طريقة أكلها التي تراها في حركة الغمّازة الصغيرة الطافية. البسارية مثلاً تقضم الطعم في نقرات صغيرة متتابعة قد تغطس بسببها الغمّازة عموديّاً لمقدار ضئيل تحت الماء، وعندما تعلق تبدي مقاومة تفوق حجمها الذي يعادل الإصبع، وعندما ترفع البوصة إلى أعلى تجدها مدلاة تشدّ الخيط وقد قوَّست جسدها الصغير بنقاطه الثلاث السود، تفرد نفسها فجأة وتقفز إلى أعلى ويرتخي الخيط ثمَّ تقع وهي معلَّقة في طرفه من فمها، وتعود للانقباض والقفز مرَّة أخرى علّها تفلت حتّى تهدّ قواها ويتّسع جرحها. البسارية هي الغالبة في الصيد بالعجين. وأمّا الراي فلقد كان قليلاً. والراية تجعل

الغمّازة ترتعش سريعاً وهي تنسحب على سطح الماء، وعندما تجذبها تتدلّى في طرف الخيط من فمها الدقيق، وهي مازالت توالي رعشتها التي تحسّها في مقبض البوصة وتسمعها كأنّها طنين خفيف مبلّل بالماء، ثمّ يسكن جسدها الفضّي الرقيق المشوق وتضوي في الشمس، خفيفة لا وزن لها في راحة اليد المفتوحة، يختلج ذيلها الخفيف المخضّب بلون الدم. يوسف النجّار فكّر أنّ الراية بنت مثل كلّ البنات، وترك زجاجة الروم الفارغة تتدحرج إلى الماء، وتمنّى أن يكتب كلّ شيء. نعم. لماذا لا تكتب، وتقول؟

لأنّك لم تعد أنت؟

ولأنّ النهر لم يعد هو النهر؟

وشعر بالحزن وهو يقول نعم. لأنّك لم تعد أنت.

وليس نهرك ما ترى، ذلك المطروح مثل ماء الغسيل.

تعاف اليوم أن تروي القلب، وتبلّ منه الريق.

يرضيك ما في فمك من ملح الدموع، وطعم الخمر والعطش.

* * *

وانتبه (يوسف النجّار)، على صوت انفجار بعيد.

(عبد الله الغلبان)

دخل عبد الله المقهى. جلس على أحد المقاعد وطلب لنفسه كوباً من الشاي وقال: «صحيح، طول عمرك وانت غلبان يا عبد الله»، ورأى بركة الوحل التي خلّفها الشيخ حسني في مدخل المقهى، وتذكّر نور، ليس هناك رجل إلّا وأحبّها. المعلّم عطية والأسطى سيّد وقاسم

وكلّ الناس. حتّى الشبان وأولاد المدارس أحبوها ولكن أحداً لم يحبها مثلك. أحببت الشيخ لأنّها كانت تحبه وتلبس له القميص على اللحم وهو يقسِّم لها على العود ويغني (لما انت ناوي) و (اللي انكتب) وهي ترقص له وتقعد في حجره أمامك وتقبِّل وجهه. تخدمهم طول الليل ثمَّ تتركهما وتعود وحدك. الشيخ حسني الذي لا يرى رأى أحلى الأيام مع نور. ملعون أبوكي دنيا. وتذهب لكي تلمحها من بعيد وتراها تطلّ عليه وهو يغادر البيت وترجوه أن يعود اليوم مبكراً. بالبدلة الزرقاء والقميص المكوي والكرافتة المعقودة وشعره الأسود المفروق وذقنه المحلوقة الناعمة. كان يجلس هنا ويضع ساقاً على ساق وتحضر له القهوة السادة دون أن يطلبها وتعجب به وتتأمّله وتحبه لأنّ نور تعاشره وتحبه. رأيته عظيماً: «مع أنّه مايستهلش» وعبدته من دون الناس وطاوعته حتّى بعد أن ماتت، صحيح: «طول عمرك وانت غلبان يا عبد الله»، تعمل (شوافة) لواحد أعمى. تصطاد له العميان لكي يسترزق. إنّهم يرونه الآن بهدومه القديمة وهو يمد يده عند العجوزة والدقي والمناطق البعيدة. وتذكّر تلك الأيام التّي كان الحظ يلعب فيها مع الاثنين وتزدهر الأحوال حيث يوفّق الشيخ في عقد صداقة مع ثلاثة أو أربعة من العميان في وقت واحد. تلك الأيام التي كنت تعود فيها آخر الليل إلى البيت وأنت مسطول وتقعد على الحصيرة وتظلّ تفكر حتّى الصباح إن كان الوقت قد حان لكي تترك المقهى وتتفرّغ لهذا العمل حيث يمكنك أن تتحرك بحرّيّة وتبحث عنهم في كلّ مكان، من عند سيدي حسن لغاية سيدي إسماعيل والمنيرة والمساكن الشعبيّة وعمارات الأوقاف، إنّه سوف يذهب حتى

إلى الوراق، وكان ينام على نفسه بينها هو ينزل سهلاً كبيراً بعرض الدنيا ومفروشاً بالنجيل الأخضر وقد جمع منهم عدَّة آلاف وراح يسوقهم بعصا طويلة حيث ينتظرهم الشيخ حسني وراء مكتبه لكي يضحك عليهم ويوهمهم أنَّه يرى ويقيِّد كل شيء في دفتر الحسابات، صحيح: «طول عمرك وانت غلبان يا عبد الله». وقام واقفاً: «قال طول عمرك وأنت غلبان، قول طول عمرك وأنت حمار»، وانتبه إلى عبد النبي الأعرج قهوجي النصبة وهو يجفِّف يديه في ذيل جلبابه ثمَّ يتناول يوميّته ويضعها في جيبه وهو يبتسم لهما في أدب: «نشوف وشك بخير يا معلّم. تصبح على خير يا عبدالله». وعبد الله عرف أنّه الليلة لن يكنس المقهى، ولن يدخل الكراسي، لن يتمم المعلّم على العدّة ويستلم كل شيء من الأكواب والصواني والكراسي والترابيزات والشيش والبواري وملاعق الألومنيوم الصغيرة، لن يفعل المعلّم ذلك لأنّ العربة سوف تحمل كل شيء على بعضه. وفكّر عبد الله وقال إنّ المعلّم سوف يستلم منه مثل كلّ ليلة ولكنّه هذه الليلة سوف يستلم ويضع في العربة طبعاً. سوف يحاسبه على الإيراد، يعدّ الماركات بالواحدة، ويأخذ منه النقود ويعدّها مرّة، واثنين، وثلاثة، القروش وحدها، والفضّة وحدها، والورق وحده، ويعطيه اليوميّة، ما يتبقّى من اليوميّة بعد أن يخصم منها ديون الزبائن، عبد الله بينه وبين بعض الناس حساب، يحضر لهم الشاي والبواري وهو يعرف أنّه لن يأخذ حسابها الآن، وفي الأيام التي كانت تضيع فيها اليوميّة إلّا قرش أو قرشين كان يغضب ساعة الحساب، المعلّم يقول: «ليك حق يا عم، ما أنت أغنى منهم». وأنت تقول: «واحد عاوز يشرب كباية شاي ولّا كرسي دخان، تقوله لا؟ طب ازاي وانت عارف أنّه خالي

شغل ولاّ كفران أو أي حاجة بالشكل ده». ولكنّه الليلة لن يقول ولن يقلع الفوطة ويعلّقها وراء النصبة لأنّه لن يعود. وفكّر عبد الله وتعب وأراد أن يقوم الآن من المقهى الذي خلا إلاّ من الكراسي المكوّمة والمناضد المركونة ويذهب كما هو بالفوطة والإيراد والماركات قبل أن تأتي العربة وتحمل كلّ شيء وينصرف وهو يعرف أنّه لن يعود. وقام واقفاً في طريقه إلى البيت ولكنّ المعلّم عطيّة اعتدل وراء الصندوق المفتوح الذي يرتب فيه الأكواب وما تبقّى من التموين وأسرع وراءه وهو يعرج وأمسكه من كتفه وعاد به إلى الداخل وأطلقه وهو يقول: «مش عيب يا عبد الله؟».

وذهب عبد الله إلى الثلاّجة الجافّة وفتحها وأخرج المبرد الكبير المسنون الذي يكسرون به الثلج في الصيف، وهجم على المعلّم الذي جرى إلى الركن: «أنا في عرض النبي حبيبك يا عبد الله». ولكنّ عبد الله ضربه على رأسه بعرض المبرد حتى لا يقتله، ضربة قوية سمعها في ذراعه كلها، ومال المعلّم في دمه واستغرق سريعاً في النوم. ونظر عبد الله ودهش من بساطة الأمر. استغرب. لقد خدع. وأدرك أن ضرب دماغ أيّ معلّم أخف من أيّ شيء. أخف من الشغل، أخف من تلبية طلبات الزباين، أو تسليك البواري، أخف حتّى من عدم الشغل، وخرج عبد الله وهو يهلوس بالكلام، واتجه إلى شارع السوق وهو مازال يقبض على المبرد الحديدي المسنون، وفكّر مرّة أخرى، لقد خدع.

(كفوف الدم)

رآهم الجاويش وهم يسحبون العجل المقيد، ويذبحونه على عتبة

المقهى الخالي. ودون أن يقوم واقفاً، أفرغ عبد الحميد صندوق الفكّة الصغيرة، وضعها في جيب معطفه الحكومي القديم، وأخرج من جيبه الآخر كيساً من البلاستيك الخفيف، فتحه وقرّبه من حافة العربة وأزاح ما كان على سطحها من بضاعة وأسقطها فيه، وحمل لمبة الجاز السهاري التي أحاطت علبة السجاير بزجاجتها المدوّرة، حملها بأطراف أصابعه ووضعها مع الكيس إلى جوار قدمه اليمنى، ومدَّ يده في جوف العربة وأخرج قطعة كبيرة من المشمّع وفردها على سطحها وجعلها تتدلّى من الأطراف وربطها بخيط من الدوبارة، وقام واقفاً، ولاحظ أنّ المقعد مازال موجوداً، والتفت إلى المقهى ورأى صبيان المعلّم صبحي وهم يخضبون كفوفهم من دماء العجل المذبوح ويطبعونها على جدران المقهى الخالي، وتراجع قليلاً، ورأى المقعد مرّة أخرى، قاعدته المشغولة بالقش الذهبي الناعم، ومسنده البني المصقول، والقوس العريض الممسوح والاسم المحفور الواضح: عوض الله. ومال عبد الحميد وأدخل ذراعه تحت مسنده ورفعه إلى كتفه وأبقاه مدلًى، وحمل كيس البضاعة بيمناه. كان رجلاً نحيلاً مائل الكتفين وذقنه نابتة بالشعر القصير الأبيض، جلد رقبته مهدّل وراء ياقة جلبابه المفتوحة، عيونه صغيرة وخالية من الأهداب، يأخذ طريقه لكي يعود إلى البيت، بينما ظلّت لمبة الجاز السهاري في مكانها تحت حافّة الرصيف. بقامتها المعدنية القصيرة، علبة السجاير مدوّرة من حولها وسقف العربة يقيها رذاذ الماء، والشعلة الحمراء صغيرة كالحبّة في جوفها الزجاجي الململم.

(١٦)

لم يكن ذلك سحراً.

هكـذا قال الأمـير وهو يقف صـامتاً تحت شجـرة الكافـور الكبيرة العالية، ويرى مقهى عوض الله بجدرانه القـديمة التي زينتهـا الأكفّ الدامية. كان المكان غـريباً وهـو يبدو خـالياً من الـدّخان. وعبـد الله وشلل النـاس. وكـان المعلّم صبحي يحتمي من المـطر بـالـوقـوف إلى الوراء من المدخل المفتوح. ذراعه مثنية على صدره وكفُّه مختبئة داخـل فتحـة الجلباب الأبيض الـذي تناثرت عليه بقـع من الدمـاء، بـدت واضحة بين طرفي المعطف الصوفي المفتوح، وهـو واقف هكذا، وقـد تـراصّت من حولـه أعـداد عـاليـة من أقفـاص الجـريـد التي فـرشت بـالأعشاب الصفـراء، وامتلأت بـأعداد كبـيرة من الـدجـاج والحـمام والأرانب التّي راحت تصـدر، وهي في حركتهـا الدائبـة التّي يراهـا، أصواتاً خفيفة متداخلة قطعتها صيحة قصيرة عالية لـدجاجـة مختفية، فانتبه الأمير في وقفته ورأى الديوك الـروميّة والخـراف متجمّعة داخـل المقهى. وتحت المطر، تباعدت أعداد أخـرى من الأقفاص إلى جـوار الميزان القبّاني المنصوب، وراح يفكّر ثمّ انتبـه مرّة أخـرى على فـرملة عربة رماديّة تتوقّف عند سور الجامع، وغادرتهـا امرأة صغـيرة تداري شعرها بايشارب حريري أبيض، عـبرت الطريق مسرعـة وهي تحمل سلّتها المفتوحـة ووقفت في ضوء المصبـاح الجديـد المدلّى أمـام مدخـل المقهى، إلى جوار أحد العمّال الذين يعملون عند المعلّم، كان أصغـر سنّاً وأطول قامة، ويقف وراء طاولة مغطاة بطبقـة من الزنـك المبتلّ، وكان يضع الدجاجة في كفّة الميزان بعد أن يعقد جناحيهـا ليزنها وهي حيّـة، ثمّ يتناولهـا بيده اليسـرى ويلوي رقبتهـا بين أصـابعه ويـذبحها بسكّينه الطويلة الحادّة التي يمسكها بيـده اليمنى، ويلقي بها في بـرميل

قـريب يتصاعـد منه البخـار، وكان يقف إلى جـوار هذا الـبرميل من الناحية الأخرى صبي صغير يرتدي الفانلّة واللباس، يلتقط الدجاجة من الماء الساخن وينزع ريشها بسرعـة ثمَّ يخرج أحشـاءها ويلقي بهـا نحو كومة قريبة أمام المقهى حيث تجمَّـع عدد من القـطط والكلاب، ثمَّ يضع الدجاجة العارية النظيفة مع الأخريات داخل السلَّة، حينئـذ بهت الأمير قليلاً وغادر مكانـه تحت شجرة الكـافور العـالية، وصعـد الرصيف الآخر، وراح يتقـدَّم إلى جوار سـور الجامـع دون أن يلتفت إلى المقهى مرَّة أخرى. بجانب عينه فقط. رأى علبة المناديل الورقيّـة الملوَّنة داخل العربة الرماديّة المركونة، والعصفـور الصغير المعلَّق وراء الزجاج الأمامي الذي غبَّشه المطر، وعند انحرافة السور تـوقَّف ونظر إلى العربة الخشبيَّة الصغيرة، وفكَّـر في الجاويش عبـد الحميد. كـانت مغطَّاة بقطعة من المشمَّع الذي غسلته مياه الأمطار، مقيَّدة إلى قاعـدة العمـود الحجري القـديم بسلسلة رفيعة من الحـديد، رآهـا مدلاة في الماء الثقيل الـذي تجمَّع في حضن الـرصيف. وربت الأمير بيـده على غطاء العربة المبتل، وقال إنَّ ذلك لم يكن سحـراً، ومقهى عوض الله أمامك هو الشاهـد، وقال إنَّها ضـاعت لأن المعلّم طعن المعلّم وأنهى كلَّ شيء. الطعنة وجُهت للمقهى. لا. الطعنـة وُجِّهت إليك أنت. إلى دنياك. دنياك المنتهكة المنهوبة، والجامع أمامك هو الشاهد. نعم. لم يكن المقهى إلاَّ الرعشة الأخيرة في هذا الجسد الكبير الـذي يرحـل أمـامك خفيفـاً كأنَّـه سحابـة تنبض بالألـوان والظلال، وسـوف تظلّ الـذكرى تعيش في قلبك إلى الأبد. خسـارة. عوض الله يمـوت الآن لأنّ عبد الله مازال صغيراً، وابتسم الأمير وقـال: «إذا كانت عـروسة

البحر ماتت»، وقال غريبة، أن يمتدَّ بك العمر لترى ذلك كله، وتفقد ذلك كلَّه، وأنت بعد، لم تتجاوز إلاَّ الثلاثين.

كلاَّ. لم يكن سحراً.

(١٧)

اقترب جابر من كوبري الزمالك لكي يعبره ويأتي بأكياس اللّبن وعلب الزبادي، ورأى أعداداً كبيرة من عساكر الأمن المركزي تسدّ الكوبري والطرق المؤدية إلى الجيزة، وأمسك بالفرملة فانحرفت العجلة دون أن تصدر صوتاً على إسفلت الطريق المبتل، وأسرع عائداً إلى فضل الله عثمان. لم يجد إلاَّ بنتاً صغيرة تنتظر وقد غطت رأسها وصدرها بجلباب مقلوب من الكستور وفي يدها لتر جاز فارغ. أخذ منها اللتر والنقود التي تقبض عليها بيدها الأخرى ودخل إلى المخزن وملأه بالجاز وأعطاه للبنت، ثمَّ أدخل الصناديق الفارغة، وأغلق المخزن وأطفأ النور الداخلي وأغلق الدكان، وظلَّ واقفاً لفترة من الوقت. ثمَّ ركب الدرّاجة وعاد إلى الميدان.

(سليمان الصغير أضاع الهرم الكبير)

عندما هبط الهرم الأكبر إلى حوش البيت وهو يحمل الكيس توقّف، ومدَّ قدمه لكي يخرج ولكنّه رأى سليمان الصغير دون أن يعرفه، فتراجع مسرعاً وكتم أنفاسه هو الآخر. لم يكن بوسع الهرم أن ينتظر دقيقة أخرى، لم يكن بوسعه أن يخرج ويغادر هذا المكان متسلّلاً دون أن يحتك بالمؤخرة الكبيرة التي توشك أن تسد الباب. وخبأ الهرم جسمه ومدَّ رأسه وتأمل جانب الوجه الذي كان ملتصقاً

بفتحات الشيش، وظلّ يتأمّله حتّى عرف أنه سليمان بن سليمان الصايغ الذي يسكن في شارع السوق. وفي العتمة رسم الهرم على وجهه ابتسامة طيّبة ومدّ يده بهدوء وربت على كتف سليمان وهو يهمس: «مساء الفلّ». ومع الهمسة الأولى قفز سليمان صارخاً في صوت مروع، وبهت الهرم الكبير ومدّ يده على الفور وراح يسدّ فمه دون أن يراه جيّداً ويقول له هامساً: «جرى إيه يا جدع؟ دانا الهرم».

ولكنّ الجنون كان قد استولى على سليمان وجعله يقع على ظهره ويصرخ: «أبوس رجلك يا عم هرم. دانت مربيني يا عم هرم».

وقفز الهرم على صدره وهو يخنقه ويقول في أذنه اليمنى: «اسكت الله يخرب بيتك»، ولكن سليمان كان يرفص تحته بقدميه حتّى طيّر الكيس وتناثرت محتوياته وهو يستغيث ويبكي بصوت كأنّه الرعد، وسمع الهرم صوت الأبواب والشبابيك وهي تفتح والضوء يغمر الحارة وخطوات الأقدام والأيدي وهي تنقب الحارة من حوله ثمّ أظلمت الدنيا مرّة أخرى. ورأى نفسه يحتضن الأرض فهبّ واقفاً وجرى هنا وهناك ولكنّه لم يعثر على ورقة واحدة من النقود أو قطعة واحدة من الحشيش، لم يجد للكيس ولا لمحتوياته أثراً. رأى نفسه وحيداً في الحارة القصيرة المسدودة وفاجأه صوت كالنفير دوى في أذنيه أذهله وأخافه فذهب يجري كالقاطرة وهو يعيي ويخبط في جدران الطريق.

(١٨)

ضمّ سترته على صدره وتقدّم قليلاً ثمّ توقّف وسط الطريق الموحل

ودار بنصفه الأعلى ورفع رأسه المائل غير الثابت، وتشمَّم الهواء وتبينً الرائحة الحادَّة، وسمع دبيب أقدام بعيدة، وراح يتقدَّم حتًى توقَّف مرَّة أخرى. لقد ازدادت الرائحة الغريبة وحرقت أنفه، وارتفع صوت الأقدام التّي تجري على الأرض الموحلة حتّى اقتربت من خلفه وأوشكت أن تدفعه أمامها فذهب يجري ناحية الميدان حتًى تبينً وقع أقدام أخرى ثقيلة تضرب بقوة على إسفلت الميدان وتأتي لتقابله وانفجر شيء إلى جواره وقفز في مكانه وانهالت من حوله الأحجار وسقطت الأشجار وداخ الشيخ حسني ودارت به الأرض فوقع على ظهره وطارت العصا من يده وفقد اتجاه الطريق، ولكنّه قلب نفسه على وجهه بسرعة بالغة وحينئذ أمسك بالرصيف فنام بطوله إلى جواره، وغطّى رأسه بذراعيه، ولبد في مكانه.

(١٩)

سمع طلقات البنادق وانفجارات القنابل المسيلة للدموع، وصعد ورأى الدخان الكريه الذي يسدّ مداخل المدينة، ولكنّه لم يستطع أن يحدِّد مكان العساكر جيِّداً، حتّى التقطت عيناه بعض الالتماعات التي تتكسَّر في الجانب الآخر من الميدان. في البداية كان يظنّها حراب البنادق، وعندما اقترب من حافَّة الشاطئ لاحظ أنَّها صادرة عن أغطية الوجه الشفَّافة المثبَّتة بخوذهم. تراجع يوسف النجَّار حتى مدخل العوَّامة التّي هنا، وجلس على السور الحجري القصير، وراح يتفرَّج على الميدان.

(معركة رأس العجل)

«لـو أنّني متّ الآن، لسعدت كـلّ السعادة. كـلّا. لقـد استحـال قلبي حجراً، أضربه فيؤلم يدي». وأغلق الأسطى قـدري الإنجليزي مجلّده القديم، ووضعه على قاعدة النافذة عند رأس السرير.

منذ أن انصرف العمّ عمران وجاء ابن الدسوقي وحمل الماكينة وهو يريد أن ينام دون جدوى. ما الذي جاء بهذا الحيـوان زغلول إلى بيته بحجّة العزاء في العمّ مجاهد؟ لقد أخذه اليأس ولم يعد بوسعه أن يجد لهـذه الكلبة أمّ عبـده عذراً واحـداً. وهزّ رأسـه وقال إنّ الحقيقـة قد أصبحت واضحة. وغادر السرير وارتدى المعطف فوق جلباب البيت ولفّ الكوفيّة حول رأسه وجانبي وجهه ولم يعـد ظاهـراً منه إلّا عينـاه الغاضبتان وفردتا شاربه الأبيض المنكـوش. وتسلّل من الحجرة ونـزل الـدرجات القليلة ومشى في حـوش البيت، وما إن مـدّ قدمـه خارجـاً حتّى دوت طلقـات البنادق وانفجـرت القنـابـل فـتراجـع سريعـاً إلى الحـوش وأزاح الكوفيـة وعرّى وجهـه، وجاءت أمّ عبـده إلى مدخـل الشقّـة وهي تقول: «إيـه اللّي فـرقـع ده؟» ووقفت أعـلى الـدرجـات القليلة وضربت بيدها على صدرها: «بسم الله الرحمن الـرحيم. انت مش كنت نايم؟».

استقـام الأسطى وأشـار إليها أن تـدخل لأنّـه كان يـريـد منهـا أن تنصرف حتّى يظلّ هو واقفاً لفترة من الوقت ثمّ يدخل وكأنّه ذهب إلى المقهى وعاد، ولكنّ المرأة لم تتحـرّك، ودوت الانفجارات مـرّة أخرى فقـالت أمّ عبده: «يـا مصيبتي. دي مدافـع». ثمّ نـظرت إلى وجهـه وغلبها الابتسام وقالت وهي تشير بيدها: «طيّب أدخل أدخل».

واشتعل الأسطى بالغضب في حوش البيت وأدرك أنّه الخروج أو العار وانطلق كالقذيفة إلى الشارع وشمّ رائحة مثل الشطّة وهو يندفع مع الأولاد نحو الميدان حيث انعقدت سحب الدخان والتهبت الدنيا بمجموعة أخرى من الطلقات وهو يجري ويرى عساكر الحكومة وهي تطلق النار وتجري أمام الأحجار التي تلاحقهم من كلّ ناحية، ورأى الولد فاروق وشوقي وابنه عبده وجابر البقّال وهم يقودون مجموعة هائلة من الأولاد ويلتقطون القنابل التي يلقيها العساكر لتنفث الدخان الكريه ويردونها ناحيتهم مرّة أخرى. وجنّ الأسطى قدري وهلوس بكلمات ماكبث أن علقوا الرايات على أسوارنا الخارجية مازالت الصرخة هي أنّهم قادمون وقوّة مدينتنا ستضحك هزءاً من الحصار وما هذا الصوت الذي أصدره ثمّ تبيّن أنّه صوت الموتور المكتوم حيث تحوّل إلى مقاتلة سريعة الطلقات فتزوّد بالذخيرة من كومة الطوب وفتك سريعاً بعساكر الحكومة وهو يحلّق عالياً ويدور حول مئذنة الجامع حتّى لا يصطدم بها فمزّق جموعهم وهبط سالماً على كتفي أحد العساكر واختطف عصاه وانطلق كالإعصار يطهّر جنبات الميدان في التحام دموي مباشر أزال خلاله عربة زغلول بائع السمين واعتلى حطامها وأخذ دورة كاملة حتّى رأى نفسه أمام المقهى وطار صوابه لمّا رآها خالية من الناس وممتلئة بأقفاص الفراخ ولمح الشيخ حسني وهو ملقى إلى جوار الرصيف وقد خبّأ رأسه بين ذراعيه فأخذ يتقدّم ويتأخر حتّى هدأت أعصابه قليلاً ثمّ لمح الشيخ يمدّ يده على الإسفلت ثمّ يسحبها سريعاً ودهش الأسطى لأنّه كان يظنّه قد مات وتحيّن الفرصة وجرى إليه وحمله من تحت إبطيه فقفز الشيخ حسني وهو يصيح: «مين؟ أنت مين؟».

«أنا قدري».
«قدري مين؟».
«الأسطى قدري يا أخي».

وحاول أن يسحبه بعيداً عن دائرة القتال ولكنَّ الشيخ حسني عاد يصرخ: «العصايا. العصايا».

وقال الأسطى: «عصاية إيه دلوقتي. العصايا ضاعت».
«ضاعت إزاي؟ العصايا هناك أهه».
«يا أخي إعمل معروف يالاَّ بينا، وإلاَّ أمشي أنا؟».
«أنا لا يمكن أتنقَّل من غير العصايا».

وأراد الأسطى قدري أن يجري من هذا المكان بالذات ولكنَّ الشيخ كان يقبض عليه جيِّداً، وصاح:

«طيِّب سيب رقبتي، وأنا أروح أدوَّر عليها».
«أجي معاك. خدني معاك».

وحاول الأسطى أن يخلِّص نفسه وهو يلعن في سره هذه المصادفة الزفت ولكن لم يتمكَّن أبداً واتجه ناحية العصا وقد تعلَّق الشيخ حسني برقبته وانحنى معه وهو يتناولها: «هات»، وقبض عليها بيديه الاثنتين: «إحنا فين دلوقت؟».

«قدام الهباب البوابة».

وانفجرت مجموعة أخرى من الطلقات والقنابل وجرى الأسطى قدري الإنجليزي وأراد الشيخ أن يجري فأصابه شيء في رأسه وساح دمه ورفع يديه إلى وجهه وصاح: «آه يا عيني».

حينئذ عاد الأسطى وحمل الشيخ على كتفه وجرى به إلى البيت ورأى أمّ عبده وهي تقف على الباب وصرخ فيها أن تحضر الماء وصبغة اليود، وعندما استدارت أراد أن يلحقها بالشلوت وهو يصيح فيها أن تتحرَّك فوقع بحمله الثقيل. وعندما دخلوا أحضرت الصينية وجلس الشيخ حسني على الكنبة وصبَّت أمّ عبده الماء على رأسه وهي تقول: «سلامتك يا شيخ حسني»، فأخبرها أنَّ الحكومة أطلقت عليه الرصاص، ثمَّ اعتدل، وخبط بيديه على فخذيه، وظلَّ هكذا وقد أخذت المياه تسيل من رأسه وهي محمرَّة من الدم، وقال: «العصايا. العصايا ضاعت».

(٢٠)

بين الحين والآخر، كانت شرارة الضوء تنبعث من ورش اللحام الصغيرة، وتضيء سماء المدينة كلّها بضوئها الباهر، وتكشف حبَّات المطر الذي ينهمر وابلاً.

* * *

عندما انفجرت واحدة إلى جوار الرصيف، انتظر يوسف النجَّار حتَّى فرغ دخانها الكريه الأبيض، وقام واقفاً والتقطها. كانت أسطوانة من الكرتون لـ ا قاعدة معدنية خفيفة، سوداء والكتابة الإنجليزية عليها باللون الأصفر (أف الـ ١٠٠ ـ فيديرال لابوريتوريز يو أس إيه ١٩٧٦) وقال يوسف النجَّار: غريبة، ورأى المظاهرة الكبيرة القادمة من شارع السودان من ناحية مصانع الشوربجي والعساكر يخرجون من الممرَّات الموجودة بين بلوكات إسكان ناصر

الشعبي ويطلقون البنادق والقنابل ثمَّ يتراجعون مرَّة أخرى ويختفون، ورأى آلاف الأحجار وهي تتدافع من مداخل المدينة نحو العساكر الآخرين وتردّهم عبر الميدان. وعندما دقّق النظر رأى أنّ هناك ألواناً وأحجاماً مختلفة، ورغب أن يجمع من كلّ صنف واحدة ويضعها في حجرته، وفكَّر أنّه سوف يفاجئ الآخرين عندما يعرضها عليهم، ووضع القنبلة الفارغة في جيب سترته ونزل إلى المساحة الخالية بين المتعاركين لكي يجمع من كلّ صنف واحدة. كانت الثانية عليها نفس الرقم ولكنّها كانت من المعدن ومثل عبوة المبيد الحشري وفيها بقايا سائل خفيف ومصنوعة أيضاً في نفس العام، والتقط ثالثة من الكرتون، فضيّة والكتابة حمراء (أف الـ ١٠٠) وعثر على مظروف لم ينفجر. كان العساكر يقذفون بهذه العبوات ناحية مداخل المدينة والأولاد يلتقطونها وهي مازالت تدخّن ويلقونها إلى العساكر مرَّة أخرى، واقترب منهم يوسف النجّار وفتّش بين الأحجار الصغيرة المتناثرة والأقدام والتقط واحدة أخرى من الكرتون (سي أن ٢١٩) وصاروخ معدني يشبه قارب السباق بطرفيه المدبّبين وبطنه المفتوح والكتابة المطبوعة (سي أن ٢١٩) أيضاً. (سي أن ٢١٨) كانت أنحل من الأخريات وأطول منها وفضيّة وكتابتها زرقاء. وملأ جيوب سترته وقال إنّها ستة والمظروف سبعة، وقلبه بين يديه. كان غلافه من البلاستيك الصلب الأحمر وقاعدته ذات الكبسولة من النحاس الأصفر. وكان البلاستيك ملموماً ليسدّ طرفه الآخر، وأخذ يوسف يفرد أطرافه الملمومة ولكنّه لم يطاوع أظافره. أخرج مفتاح شقّة مجيد واستخدم طرفه الحديدي بعناية حتى فتحه وأفرغه في يده، وتجمّعت

في راحته حفنة من الكريات الحديدية الدقيقـة كأنّها الـبرغل، ولكنّهـا ثقيلة وقاتمة. وفي وسط الجلبة، راح يسقط هذه الكـريات من جـانب كفه ويعيدهـا بحرص إلى قلب المظروف مرّة أخـرى، كان يعـدّها، واحدة، واحدة.

* * *

مع الضربة الأولى، لم يشعر بالألم، إلا أنّـه، عندمـا انبثقت شرارة الضوء، تركت في عينيه أثراً من النار.

(رجوع الشيخ إلى عصاه)

وهبّ الشيخ واقفاً.

غـادر بيت الأسطى قـدري الإنجليزي وقـد مدّ يـديـه إلى الأمـام وقلب كفّيـه إلى أسفل. كـان يتقدّم صـوب الميدان دون حـذر. غادر قـطر الندى إلى شـارع السوق وهـو يلتقط بأذنيـه الكبيرتـين أصـوات الأولاد وحـركتهم إلى جوار الجـدران، حتّى وصـل إلى أول الميـدان. أعطى ظهره إلى الجامع وعرف أنّه يعطي ظهره الآن إلى بـوابة الكميت كات الحجريّة العاليّة. ومع الخطوة الأولى شعر بـالصمت الذي خيّم على الدنيا. لقد كفّ الأولاد الذين يتجمّعون وراءه يحرسون مـداخل المـدينة عن الكـلام. وسكنت حركـة عسـاكـر الحكومـة من النـاحيـة الأخـرى من الميدان. واقتحم هـو الأحجار المـرمية وفـوارغ القنـابـل والطلقات التّي تناثرت في كل مكان، ثمّ توقّف مرّة أخرى. هنا كـان يقف مع الأسطى قـدري، وهنا أصـابته الحكـومة في رأسـه بطلقـات الـرصاص. وخـطا خطوة وحيـدة ثابتـة، ومال إلى أسفـل، ومدّ يـده

اليمنى وتركها مفتوحة في الهواء البارد، وراح يحركها خفيفاً على مقربة من الأرض وكأنه يستدفئ تحت قطرات المطر الرفيعة في قلب الميدان، وفجأة تردَّدت يده اليمنى ثمَّ توقَّفت، أرخاها، وتقاربت أصابعه ولامست أطرافها أسفلت الطريق المبتلّ البارد، واستقرَّت باطن كفِّه على المقبض المصقول الذي يعرفه. تناول الشيخ عصاه ثمَّ اعتدل، استدار وظلَّ يمشي حتَّى خلَّف الميدان وراءه، وتوقَّف أمام الباب ورفع رأسه المدلَّى وبان خيط من الدم وراء أذنه الكبيرة القاتمة. ورفع العصا إلى أعلى وتحسَّسها تحت خيوط المطر المتزايد، ثمَّ قبض عليها مرَّة أخرى، وقبل أن يمدَّها أمامه ويدخل من الباب، ربت بيده على جيبه من الخارج، وابتسم لنفسه ابتسامة كبيرة.

إنَّهم حتَّى لم يكسروا البيضة.

(٢١)

لم يحاول يوسف النجَّار أن يرى جرحه. كان قماش البنطلون مقطوعاً وغارقاً في الدم والوحل. وبدت له ركبته وقد تهشَّمت وكبر حجمها. ولكنَّك جئت إلى هنا على قدميك، هكذا قال، تعود مرَّة أخرى إلى النهر. أتذكر؟

ونظر إلى الشاطئ الآخر الذي أكلته جسور المسلَّح لتقام الكازينوهات والملاهي. ورفع وجهه إلى أوناش الحديد العملاقة التي تطُل عليه من سقف الدنيا وتحاصره أيديها الطويلة الممدودة في قلب الليل، وعيونها الحمراء، وتمنَّى أن يكتب كلّ شيء. يكتب كتاباً عن النهر، والأولاد، والغاضبين وهم يأخذون بثأرهم من فاترينات

العرض وأشجار الطريق وإعلانات البضائع والأفلام. تقول إنّك رأيتهم رأي العين يحرقون وتستجيب لهم حتّى أعشاب الشاطئ الخضراء. تكتب أنّك مشيت على كسور الزجاج التي غطّت شوارع المدينة وأرصفتها، تقول تحطّم زجاج النظارات على عيون الرجال، وتحطّمت حتّى المرايا الصغيرة في شنط البنات، تقول لو أخذها صبي لانشقّ من أجله النهر، تكتب عن المقهى وعمران وكلّ الناس، عن دنيا السهر والدّخان وأشجار الليل والعفاريت الصغيرة، شيوخ إمبابة، الشيخ منهم طوله شبران ولحيته طولها شبر من القش الذهبي الناعم الأحمر والأخضر والأصفر، يعشّشون هناك بين أغصان الكافورة الكبيرة العالية، يصدرون الجلبة الخفيّة وهم يزقزقون مثل العصافير الهرمة ويقفزون من غصن إلى آخر بجلابيبهم القصيرة التي تكشف عن سراويلهم الداخليّة الدمور وسيقانهم القصيرة المعوجّة، يقرضون الأوراق ويتهامسون بأسرارهم الصغيرة الخشنة التّي يداورونها في ذقونهم الملوّنة المرسلة. يضحكون كأنّهم يشخّرون، ويبولون على الأحفاد وأبناء الطريق. دنيا الزقاق والملاءات السود، والحاجب المقوّس والعين الضاحكة والفخذ الذهبي الناعم في بير السلم، والحجرة الأرضية المغلقة وفاطمة الحلق العطشان لا ترويه جرعاتك الليليّة، فاطمة يرويها النهر.

إمبابة، أيّتها السيّدة الحزينة الفاجرة.

أنت سكران.

كلاّ. أنت مجروح.

وراح ينحدر بجسده على قاذورات الشاطئ الطريّة، ويشمّ

رائحتها العطنة التي امتزجت برائحة الأمطار النقيَّة. واقترب يوسف من الماء. أراد أن يغسل جرحه.

اغسل.

لكم عبيت من مياهه الفوَّارة، وطميه الثقيل.

اغسل.

لكم غرقت فيه عارياً. ولكم أخذك التيَّار.

* * *

كانت الأوراق المبتلّة تضفي على الهواء بريقاً خفيفاً رصاصيّ اللون. وهناك، كانت نافذة بعيدة مفتوحة، نافذة معلّقة، يطلّ منها هيكل إنساني وحيد، له خلفيّة ثابتة من النور، وإطار من الليل.

(رحيل)

كانت الانفجارات قد هدأت، وتبدَّدت سحب الدخان الكثيف. ومع أنَّ المطر كان يتساقط فإنَّ الرائحة الكريهة كانت لاتزال عالقة في الهواء، وتدمع عيون العمّ عمران وهو مازال يجلس على مقعده الكبير في سطحه الصغير العالي وقد ألقى على كتفيه بطانيّة صوفيّة ثقيلة. كان عساكر الأمن المركزي قد ارتدّوا عن المنافذ القريبة، ردَّهم الأولاد، واصطفُّوا بعيداً عن الميدان المبتلّ الخالي إلاَّ من الأحجار وفوارغ القنابل المسيلة للدموع والطلقات. وكان الأولاد يحتلّون مداخل مدينتهم وقد جلسوا على عتبات البيوت واستندوا إلى الجدران وهم يتبادلون التعليقات الخافتة ويضحكون، وكان جناحا السور الحجري المنخفض مقوسين ويلتقيان عند صارية خشبيّة عالية، وبدا

السطح وكأنّه القارب الكبير، والعمّ عمران في مقعده هو عامل الدفّة والربّان، أطلّ من هنا، ورأى عساكر الحكومة على اليابسة البعيدة، والأولاد يزحمون أرصفة المدينة التي يغادرها. وأراد أن يرفع يده ملوحاً ولم يقدر، فأدار وجهه إلى النهر حتّى غلبته عينه، ورأى فيما يرى الجالس كأنّ القيامة قد قامت، وكأنّ المنادي ينادي أن هلمّوا إلى العرض على الله تعالى، فغادر المكان وهو يضمّ البطانيّة على صدره ويمّم صوب أرض المحشر عند ميدان الكيت كات حيث شاهد الناس وهي تنحدر من السماء إلى الأرض زرافات ووحداناً، ورأى المعلّم صبحي وهو يخرج من النار ويجلس على الرصيف لكي ينفث الدخان من فتحتي أنفه وأذنيه. وأبصر العمّ مجاهد وهو يجلس شاخصاً في كفّة من الميزان وأعماله في الكفّة الأخرى، حينئذ هرول العمّ عمران من خوفه وتبوّل وراء سور الجامع وأطلّ برأسه من هناك. ولم يلبث أن رأى الولد فاروق وهو يأخذ شوقي ويهربان، فخفّ في أعقابهما حتّى وجد نفسه في مقهى عوض الله، وشرب كوباً من الحلبة وتحدّث قليلاً مع الحاج عوض الله وهو يرتدي العباءة ويتهيّأ للانصراف فشرب كأساً آخر من الكونياك مع ببا عز الدين، واعتدل في مقعده الخشبيّ الكبير، وانفرجت عيناه قليلاً، وعندما رأى النهر أغمضهما، وراح يبحر في الليل، ويختفي بين نجوم الشتاء القليلة الغائرة.

(مطـــر)

كانت حبّات المطر ثقيلة ودافئة، وعلى سطح النهر، كانت كلّ قطرة تصنع دوّامة صغيرة وتقفز إلى أعلى ثمّ تهبط وهي تتألّق كحبّة

من اللؤلؤ. وفي قلب السكـون، لم يكن يسمـع إلاَّ وقعـه الـرتيب المنتـظم على السقـوف، وهسيس الأشجار وهي تغتسـل عـلى حـافـة الشاطئ. وما هي إلاَّ فترة من الوقت حتًّى هبَّت ريـح الشمال الكبـيرة العالية، وطوحت خيوط المـطر بعيداً حتًّى حـافَّة الليـل. وعند طـرف الكوبري الحديديّ القاتم، أشرق ضوء من الفجر.

(رجـــوع)

في الحجرة الخارجيَّة التيًّ تطلّ على الوسعاية الصغيرة، فتح يوسف النجَّار عينيه قليلاً، ورأى نور الصباح الخفيف وهو يدخل من فتحات الشيش المغلق، وتبينً الفوارغ الأسطوانيّة بـألوانها المختلفـة، واللوحة الكبيرة المعلَّقة، وقبل أن يغلق عينيه مرَّة أخرى، مدَّ أصابعه اليمنى، لامس جرحه الجديد.

وفتح الباب.

* * *

كانت الليلة تنقضي، والهدوء يتراجع،

كما تتراجع الأحلام

إمبابة: ديسمبر ١٩٧٢

إبريل ١٩٨١

وتمنّى أن يكتب كلّ شي. نعم. لماذا لا تكتب، وتقول؟

لأنّك لم تعد أنت؟

ولأنّ النهر لم يعد هو النهر؟

وشعر بالحزن وهو يقول نعم. لأنّك لم تعد أنت.

وليس نهرك ما ترى، ذلك المطروح مثل ماء الغسيل.

تعاف اليوم أن تروي القلب، وتبلّ منه الريق.

يرضيك ما في فمك من ملح الدموع، وطعم الخمر والعطش.

وانتبه (يوسف النجّار)، على صوت انفجار بعيد.


دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

